الدكتور محمد جميل غازي

من مفردات القرآن

- ٢ -

• المنافقون

مكتبة المدني ومطبعتها
جدة سوق الندى ت ٢٢٢٦٢٠

الدكتور محمد جميل غازي

من مفردات القرآن

– ٢ –

• المنافقون

مكتبة المدني ومطبعتها
جدة سوق الندى ت ٢٢٢٦٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

● وبعد : فإن هذه هى « الحلقة الثانية » من مفردات القرآن .

لقد وفق الله وأعان على أن توالى هذه السلسلة صدورها وصمودها ،

ولولاه .. لولا الله .. ولولا عونه ومدده : لما كان لهذا العمل أن يستمر ، ولا أن يثمر ، ولمات وليداً وئيداً ! !

ولكنها عناية الله ورعايته : قيّضت لهذه الرسائل أعداداً هائلة من الأصدقاء ، دفعوها إلى الإمام ، وشجعوها . . .

وما كان لى ، ولا لأكثر المشجعين تفاؤلا : أن نظن أو أن نحسب ، أن قدرتها على « التوزيع » تصل إلى هذا الحد ، ولا أن قوتها على « الصمود » تصل إلى هذه الغاية . .

ولكنها قدرة الله وإرادته . . .

وهل ينكر قدرة الله وإرادته إلا كافر جحود ؟ !

* * *

● وإننى إذ أقدم هذا الجزء الثانى من هذه السلسلة : أشكر كل المخلصين الذين وقفوا إلى جانبى مؤيدين ومشجعين :

وأرثى لكل المعوقين الذين حاربوا هذا العمل بكل أساليب الحقد

والكيد والدس ، ووقفوا فى سبيله صادين عنه ، هازئين به .

* * *

● وموضوع رسالة اليوم :

(المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم)

وقد صوّر القرآن الكريم أحوال المنافقين فى كثير من آياته ، ونشر علينا المديد من أخبارهم وأسرارهم فى كثير من سوره، أجارنا الله منهم ومن أخبارهم وأسرارهم . . وشفى صدورنا من كل أمراض القلوب ، وعلل النفوس ! !

● رب اشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . . .

ويارب ، ورب العالمين ... اهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ! !

ويارب ، ورب العالمين . . . لك الحمد فى الأولى والآخرة .

ويارب ، ورب العالمين ... لك العتبى حتى ترضى ولا إله إلا أنت .

الدكتور

محمد جميل أحمد غازى

مقدمات

المقدمة الأولى : [تعريف النفاق] :

المنافق — هو الذى يظهر الإيمان ، ويبطن الكفر .

قال الأنبارى : وهو مأخوذ من النفق ، وهو السّرب ، فهم يتسترون بالإسلام ، كما يتستر الرجل فى السرب .

وقال غيره : إنه مشتق من النافقاء — وهو جحر اليربوع — أو أحد بابيه .

قال أبو عبيدة : إنه يجعل لجحره بابين ، أحدهما : القاصعاء ، والآخر : النافقاء ؛ فإذا طلب من أحدهما خرج من الآخر ، وهكذا شأن « المنافق » يظهر للمؤمنين من باب الإيمان ، وللكافرين من باب الكفر ؛ فإذا أصابته مشقة من أحدهما لجأ إلى الآخر .

وقال غيره : إن النافقاء جحر اليربوع يحفره فى الأرض ويرققه من أعلاه ؛ فإذا رابه شىء نخاف على نفسه دفع التراب برأسه وخرج ؛ فقيل « للمنافق » منافق ؛ لأنه يضمر الكفر فى باطنه ، فإذا فتشته رمى عنه ذلك الكفر وتمسك بالإسلام — كذا وجّهه الرازى — ، ولك أن تقول : لأنه يلجأ إلى الإسلام ويحتمى به فإذا رابه منه شىء خرج منه إلى الكفر .

وقول بى عبيدة أظهر هذه الأقوال .

* * *

المقدمة الثانية : [النفاق ومادته فى القرآن الكريم] .

ورد لفظ النفاق ومشتقاته فى القرآن الكريم ٣٨ مرة .

وقد تردد ذكر المنافقين وأحداثهم فى سبع عشرة سورة من سور القرآن المدنية — هى :

– البقرة – الآيات : (٨–٢٠) ، (١٤٢ ، ١٤٣) ، (٢٠٤ – ٢٠٦) .

– آل عمران – الآيات : (٧٢) ، (١١٨ – ١٢٠) ، (١٥٤ – ١٦٨) ، (١٧٩) .

– النساء – الآيات : (٣٧ ، ٣٨) ، (٦٠ – ١١٥) ، (١٣٥ – ١٤٦) .

– المائدة – الآيات : (٤١) ، (٥١ – ٥٦) ، (٦١) .

– الأنفال – الآية : (٤٩) .

– التوبة – الآيات : (٣٨ وحتى آخر السورة) .

– الحج – الآيات : (٣ ، ٤) ، (٨–١٣) .

– النور – الآيات : (١١ – ٢٦) ، (٣٣) ، (٤٧– ٥٣) ، (٦٢–٦٤) .

– العنكبوت الآيات : (١٠ ، ١١) .

– الأحزاب – الآيات : (١ – ٢٠) ، (٣٦ – ٤٨) ، (٦٠ – ٦٢) ، (٧٢ ، ٧٣) .

– القتال – الآيات : (١٦ وحتى آخر السورة) .

– الفتح – الآيات : (٦) ، (١١ – ١٦) .

– الحديد – الآيات : (١٣ – ١٥) .

– المجادلة – الآيات : (٨) ، (١٤ – ٢٢) .

– الحشر – الآيات : (١١ – ١٧) .

– المنافقون – الآيات : (١ – ٨) .

– التحريم – الآية : (٩) .

• ومن استعراض هذا الثبت يتضح ما يلي :

أولا : أن موضوع النفاق والمنافقين ، قد استغرق مايقرب من ٣٤٠ آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها ٦٢٣٦ آية .

ثانياً : كذلك ؛ فإن هذا الموضوع قد ورد فى سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ٣٠ سورة .

والسور المدنية التى لم يذكر فيها « المنافقون » - هى : الرعد ، الحجرات ، الرحمن ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة [1] ، التغابن ، الطلاق ، الإنسان ، البينة ، الزلزلة ، النصر ، الفاتحة (على خلاف فيها هل هى مدنية أو مكية).

● وسأحاول فى فصول هذه الدراسة الموجزة أن أقدم بعض ما جاء فى القرآن الكريم خاصاً بالمنافقين ، ولا أقول إنها ستكون دراسة مستوعبة شاملة ، لأن الاستيعاب والشمول فوق طوق هذه الرسالة القصيرة ، والمجهود الضئيل الذى بذل فيها .

* * *

المقدمة الثالثة : [القلوب وأمراضها] :

● تحدث القرآن الكريم عن القلوب المريضة فى اثنتى عشرة آية من آياته ، وبيَّن أن هذا المرض يصاب به المنافقون ، كما يصاب به المترددون بين الإيمان والكفر : نفهم ذلك من قوله تعالى : (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم) - فجمع بين المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - وكذلك قوله تعالى : (٣٣ : ١٢ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) (٣٣ : ٦٠ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا).

---

(١) قيل : إن قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ نزل فى المنافقين .

وقد يذكر فى الآية مرضى القلوب وحدهم ، وحينئذ يكون المقصود بهم المنافقين كما جاء فى قوله تعالى : (٢ : ١٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) (٥ : ٥٢ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) (٤٧ : ٢٩ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) .

• ولقلوب المنافقين والكافرين فى القرآن الكريم عشرون وصفاً :

١ — الختم : (٢ : ٧ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) .

٢ — الطبع : (٦٣ : ٣ فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٤ : ١٥٥ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) .

٣ — الضيق : (٦ : ١٢٥ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّد فى السماء) .

٤ — المرض : (٢ : ١٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) .

٥ — الرين : (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

٦ — الكبر : (٤٠ : ٥٦ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) .

٧ — القساوة : (٣٩ : ٢٢ فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله) (٢ : ٧٤ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) .

٨ — الانصراف : (٩ : ١٢٧ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) .

٩ — حمية الجاهلية : (٤٨ : ٢٦ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) .

١٠ — الإنكار : (١٦ : ٢٢ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) .

١١ — الغفلة : (١٨ : ٢٨ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

١٢ — العمى : (٢٢ : ٤٦ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

١٣ — الاشمئزاز : (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) .

١٤ — الزيغ : (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

١٥ — الريب : (٩ : ٤٥ وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) .

١٦ — النفاق : (٩ : ٧٧ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) .

١٧ — الغمرة : (٢٣ : ٦٣ بل قلوبهم فى غمرة) .

١٨ — اللهو : (٢١ : ٣ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى) .

١٩ — الأكنة : (٦ : ٢٥ وجعلنا على قلوبهم أكنة) .

٢٠ — الإثم : (٢ : ٢٨٣ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

• وكذلك لقلوب المؤمنين والمتقين عشرون وصفاً :

١ — السلامة : (٢٦ : ٨٨ ، ٨٩ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) (٣٧ : ٨٣ ، ٨٤ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم) .

٢ — الإنابة : (٥٠ : ٣٢ ، ٣٣ هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) .

٣ — الاطمئنان : (١٦ : ١٠٦ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (٢ : ٢٦٠ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) (١٣ : ٢٨ ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

٤ — الهداية : (٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

٥ — الربط : (٢٨ : ١٠ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) (١٨ : ١٣ ، ١٤ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا) .

٦ — التقوى : (٢٢ : ٣٢ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) .

٧ — السكينة : (٤٨ : ٤ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) .

٨ — الرأفة والرحمة : (٥٧ : ٢٧ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة)

٩ — الخشوع : (٥٧ : ١٦ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) .

١٠ — الشرح : (٩٤ : ١ ألم نشرح لك صدرك) ؛ (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

١١ — الشفاء : (٩ : ١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) (١٠ : ٥٧ قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) .

١٢ — نزع الغل : (١٥ : ٤٧ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) .

١٣ — التثبيت : (١١ : ١٢٠ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (٢٥ : ٣٢ كذلك لنثبت به فؤادك) .

١٤ — الطهارة : (٣٣ : ٥٣ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) .

١٥ ـ الوجل : (٨ : ٢ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) .

١٦ ـ الإخبات : (٢٢ : ٥٤ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم . وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) .

١٧ ـ التمحيص والامتحان : (٣ : ١٥٤ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) (٤٩ : ٣ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) .

١٨ ـ الألفة : (٨ : ٦٢ ، ٦٣ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) .

١٩ ـ اللين : (٣٩ : ٢٣ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

٢٠ ـ الإيمان : (٥٨ : ٢٢ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

• هذه أوصاف القلوب . . ولا يملك من قرأها وتدبرها إلا أن يدعو الله بهذا الدعاء المؤمن المخبت الذي كان يردده النبي صلى الله عليه وسلم في إصباحه وإمسائه : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » .

* * *

المقدمة الرابعة : [صفات المنافقين عامة]

• ذكرت في « المقدمة الثالثة » بعض ما جاء في القرآن الكريم عن القلوب وأدوائها ، وكوامن الخير فيها ، وكوامن الشر .

وأذكر في هذه « المقدمة الرابعة » بعض « صفات المنافقين العامة » .

ثم أذكر في فصول البحث تفصيلا لهذا الإجمال ، إن شاء الله وقدر !

غير أني أبادر فأقول : إن ما جاء في القرآن الكريم من حديث عن « النفاق » و « المنافقين » يعتبر – لو أحسن فهمه واستيعابه – أساساً « لعلم القلب القرآني » أو على حد تعبير العصر : « علم النفس القرآني » .

وأبادر فأدعو المهتمين بالدراسات الإسلامية والإنسانية إلى العناية بهذا النوع من الدراسة : لأنهم بهذا سوف يقدمون للمجتمع البشري خيراً كثيراً ، ونفعاً غزيراً . وسوف يضيفون إلى التراث الحضاري رصيداً ضخماً من الأخلاق والمعرفة التي تهم الإنسان وتهديه .

وقد وضح القرآن الكريم صفات المنافقين في عدد من سوره وآياته . ونكتفي بعرض بعضها لتكون بين يدي القارئ كتمهيد ومدخل :

١ – الضلال والحيرة : فهم غارقون في الظلمات ، يغشاهم اليأس ويعميهم الشك : ماضيهم ذكريات سوداء معتمة ، ويومهم رعب قاتل مدمر ، ومستقبلهم هوة سحيقة من العدم والخيبة والضياع ، والناس والأشياء من حولهم أعداء يتربصون بهم الدوائر . وقد ضرب الله لضلالهم وحيرتهم الأمثال فهو يقول : (٢ : ١٧ – ٢٠ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) فهم في الخيبة جاثمون . وفي الطغيان يعمهون . وفي الظلمات لا يبصرون . وعن الصراط لناكبون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، ولا يؤمنون ، ولا يفقهون !

٢ – التربص ، وتوقع الشر بالمؤمنين : فتراهم – دائماً – أعداء الحق حين يتمنون مصرعه وينتظرون نهايته : ملأ الحقد والسعار قلوبهم ، وأكل صدورهم . وصدق القائل : « عجباً لحسد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله » ويقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (٤ : ١٤١ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) فترى عواطفهم – إن كان لهم عواطف – مجال مساومة وتجارة ، فهم يطلقونها عند الخوف ! ، وترى حياتهم كلها لحظات ترقب وانتظار وأيامهم كلها فترات توثب وانقضاض .. يتمنون أن تنزل بالمؤمنين كارثة ، أو تحل قريباً من دارهم !

٣ – الجبن والخور : أجسامهم معجبة ، وأقوالهم مطربة ، ولكن بواطنهم خربة (٩ : ٥٦ ، ٥٧ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون) !

٤ – كسالى في البر والخير ، مسارعون في الشر والضر : (٩ : ٥٤ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) (٤ : ١٤٢ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) فكأنما هم دائماً يتنكبون كل طريق معبدة ، ويهرعون إلى كل طريق فاسدة ومفسدة (٥ : ٥١ ، ٥٢ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) .

٥ – الكذب : وماذا تنتظر من الضعيف الذليل ، الحائر الضال ، الجبان الخائف : إلا أن يكذب ، ويسرف في الكذب ، وفي الأيمان الفاجرة ؟ ماذا تنتظر منه ، وهو الذي انقطعت علاقته بكل « قيمة » شريفة ، وامتلأ قلبه بكل

أساليب الخداع والالتواء ! (٥٨ : ١٦ ، ٦٣ : ٢ اتخذوا أيمانهم جنة) ستاراً ووقاية . وحتى يستطيع الكذب المنمق ، أن يستر النفاق والفسوق !

٦ — التخلف عن مواطن الكرامة : فهم يكثرون عند الطمع ، ويقلون عند الفزع (٤٧ : ٢٠ ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف) .

٧ — التحاكم إلى الطاغوت : فتراهم يهرعون إلى الطاغوت يتحاكمون إليه ، ويصدون صدودا عن حكم الله (٢٤ : ٤٨ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) !! إن شعارهم دائماً (٩ : ٥٨ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) .

٨ — العزة الآثمة . فالمنافق لا يقبل وعظاً ولا تعليماً ، لأنه يرى فى نفسه أنه فوق الوعظ والتعليم ، حتى كلمة « اتق الله » يرفضها ، ويرفض أن يسمعها ، أو أن تقال له : (٢ : ٢٠٦ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) فماذا يكون حاله ومآله ؟ (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

٩ — ترويج الإشاعات : وهذه طبيعة الإنسان الفارغ الذى لا يشارك فى الحياة النشيطة من حوله ، إنه يكتفى بأن يذر الرماد فى عيون العاملين ، ويتقول الأقاويل على الكادحين والمكافحين (٤ : ٨٣ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

١٠ — الشماتة : وهم يظهرونها فى صورة الحكمة والكياسة ، وعمق النظر ، وبعد الغور ، والعلم ببواطن الأمور (٩ : ٥٠ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن

تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) .

• تلك بعض صفات المنافقين - لا كلها - ، ولو رحت أستقصيها واحدة واحدة : لسودت وجه مئات الصفحات ، ولكنني أكتفي بهذا الإجمال لما سيليه من تفصيل .

* * *

المقدمة الخامسة : [تحقيق معنى حديث النفاق]

• وهو الحديث الذي أخرجه البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وقد ترتب على هذا الحديث سؤال مشهور : - هل يكون المتصف بشيء من الخيانة أو الكذب أو الغدر بالعهد أو الفجور في الخصومة : نفاقاً ، يندرج به صاحبه في عداد المنافقين الذين قال الله فيهم : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) ؟

وللعلماء أمام هذا الحديث عدة مواقف :

الموقف الأول : وهو للبخاري والحسن البصري ، وقد أخذوا بصريح النص ، وقالوا : إن من اتصف بهذه الخصال الذميمة فهو منافق .

الموقف الثاني : أن ذلك خاص بالمنافقين في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس ، قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه ، فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت : ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم

أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق » فظننا أنا لم نسلم منهن ، أو من بعضهن ، ولم يسلم منهن كثير من الناس . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ما لكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في كتابه :

أما قولي : « إذا حدث كذب » فذلك قول الله عز وجل : (إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) . أفأنتم كذلك ؟ قلنا : لا . قال : لا عليكم أنتم من ذلك براء !

وأما قولي : « إذا وعد أخلف » فذلك فيما أنزل الله علي : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآيات الثلاث ـ « أفأنتم كذلك ؟ قلنا : لا . والله لو عاهدنا الله على شيء أوفينا به . قال : لا عليكم أنتم من ذلك براء !

وأما قولي : « إذا ائتمن خان » فذلك فيما أنزل الله علي : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) الآية ، فكل إنسان مؤتمن على دينه ، فالمؤمن يغتسل من الجنابة في السر والعلانية ، والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية . أفأنتم كذلك ؟ قلنا : لا . قال : لا عليكم أنتم من ذلك براء ! »

وكان من الممكن أن يكون هذا الحديث فيصلاً في فهم الإشكال لولا ما فيه من مقال !

الموقف الثالث : قال أصحابه : إن المقصود هو من إذا حدث عن الله كذب عليه وعلى دينه ورسوله ، وإذا وعد أخلف ، كما ذكر فيمن عاهد الله ، وإذا ائتمن على دين الله خان في السر فكان قلبه على خلاف لسانه .

وهذا الموقف قريب من سابقه ، إن لم يكن هو هو .

الموقف الرابع: وهو موقف ابن العربي، وملخصه: أنه قد قام الدليل على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافراً، وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته، أو التكذيب له، وأنه لو غلبت المعاصي ما كان به كافراً ما لم تؤثر في الاعتقاد.

• وأخلص من هذه الآراء جميعها إلى أن للمنافقين صفات خاصة يمتازون بها من بين سائر الناس، كالخيانة، والكذب، والغدر، والفجور: تلك التي ذكرها الحديث الشريف؛ فهم يأتون هذه الصفات المرذولة، مستحلين لها، معتقدين أنها من الحكمة والكياسة: ومن هنا كان ضلالهم، الذي قادهم إلى استحلال ما حرم الله، والكفر بما أنزله، ثم ستروا كفرهم، فكانوا منافقين.

• والرسول صلى الله عليه وسلم إذ يأمر أصحابه وجميع المسلمين بالابتعاد عن هذه الصفات، إنما يريد لهم أن يبتعدوا عن مواطن الشبهات، حتى لا ينزلقوا إلى هذه المهاوي السحيقة التي تؤدي بأصحابها إلى النفاق لا محالة.

• وإن من يقارف هذه الصفات ويتعودها، ينحدر إلى منحدر لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، بل تختل في نظره المعايير، وتنتكس القيم: يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف: (٩ : ٦٧ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم).

• والحق أن القلب يتأثر بجميع الأعمال التي تأتيها الجوارح من خير وشر، نافع أو ضار، حق أو باطل، رضا أو سخط، طاعة أو معصية، حلال أو حرام.

ولاشك أن الكذب والخيانة والغدر والفجور من أشد الأمراض فتكا

بالأفراد والجماعات ؛ ولذلك حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنذر فاعليها بالمآل الوخيم والعذاب الأليم . فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وروى حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً[1] فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة[2] بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين : قلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً[3] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض » .

ومن هنا نعلم أن مداخل النفاق هي الكذب والخيانة والغدر والفجور ، كما تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم !

* * *

المقدمة السادسة : [عقوبة المنافقين]

وتدور هذه المقدمة حول سؤالين هامين :

---

(١) عوداً . . عوداً ، أي : تعاد وتكرر ، وفي رواية : عوذاً . . عوذاً ، دعاء بالاستعاذة منها . وقد شبه عرض الفتن على القلب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها .

(٢) النكتة : كل نقطة في شيء تخالف لونه .

(٣) مجخيا : منكوساً .

السؤال الأول: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أعيان المنافقين؟

السؤال الثاني: وما الحكمة في كفه صلى الله عليه وسلم عن قتلهم مع علمه بأعيانهم؟

أما «السؤال الأول» فنقول في الإجابة عليه: إن كثيرا من المنافقين كانوا معروفين للنبي صلى الله عليه وسلم. ودليل ذلك حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا الذين هموا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماء الليل عند عودته من تبوك عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم وقد أسند ذكرهم عند حذيفة صاحب سره الذي قيل عنه: إنه علم من النبي صلى الله عليه وسلم جميع أسماء المنافقين؛ حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يدعو حذيفة بن اليمان للاشتراك معه في الصلاة على موتى المسلمين، فإذا امتنع حذيفة عن الصلاة علم عمر أن المتوفى منافق، فترك الصلاة عليه عملا بقوله تعالى: (٩ : ٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره).

وقد كان المنافقون أنفسهم يحذرون أن تفضح أسرارهم، وفي ذلك يقول تعالى: (٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون).

ومع هذا: فقد كان من المنافقين من خفي حاله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: (٩ : ١٠١ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم)، وقوله تعالى: (٣٣ : ٦٠ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) وفي هذه الآية دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك أعيان بعضهم، وإنما كانت تذكر له صفاتهم، كقول الله

تعالى : (٤٧ : ٣٠ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) .

وأما « السؤال الثاني » فأقول فيه : إن القاعدة الأساسية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في معاملة المنافقين — هي معاملتهم بحسب الظاهر، وتفويض أمر السرائر إلى الله وحده .

وقد انكشف للنبي صلى الله عليه وسلم أمر كثير من المنافقين — كما أسلفت — ولكن الله أمره بالإعراض عنهم (٤ : ٨١ والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) (٩ : ٩٥ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس) .

وقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه : « أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » يقول ابن كثير (١) : « ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغيُّر لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر؛ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد مايظهر لهم » .

ويقول القرطبي (٢) : وذلك منه صلى الله عليه وسلم : « كما كان يعطى المؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم » .

ويقول الإمام مالك : « إنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه » .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته أن الحاكم لايحكم إلا بظواهر الأدلة، أما سرائر القلوب فيترك علمها لله وحده !

---

(١) التفسير حـ ١ ص ٤٨ .   (٢) حـ ١ ص ١٩٩

فقد جاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: «أيها الناس إن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقرّبناه، وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمّنه ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة».

المقدمة السابعة: [الذم في القرآن الكريم]

• إذا كان الذم معناه: الوصف بالقبيح، والسب والشتم لمجرد التعيير والتشفي سواء كان معناه صحيحاً أو افتراءً أم كذباً مفترى: فالقرآن منزه عن ذلك:

يقول الله تعالى: (٦ : ١٠٨ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الإمام أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث عياض بن حمار: «المستبان شيطان يتهاتران ويتكاذبان».

• أما ما في القرآن الكريم من ذم الكفار والمنافقين: فإنما هو بيان خطيئة جرمهم، وقبح أعمالهم، بقصد الإنذار والوعظ، لا أنه يقول أو يحدث لهم ذكراً: ولذلك نجد هذا الذم موجهاً إلى صفات لا إلى أشخاص، فهو موجه إلى المشركين والكافرين والمنافقين والفاسقين والمجرمين والظالمين.. وهكذا.

• وما جاء عن أعداء الله وأعداء رسوله فهو لا يتناولهم بأسمائهم: إلا ما كان من أمر «أبي لهب» وامرأته حمالة الحطب، «وآزر». لإثبات وتأكيد قاعدة مضمونها أن دين الله تعالى مبني على الأعمال الصالحة، لا على الأنساب والوساطات(١)!!

«أبو لهب» هو عم النبي محمد عليه السلام.. وآزر هو والد إبراهيم عليه السلام.. وهذا المعنى الجليل ينبغي أن يتدبره الناس ويفهموه.

(١) تفسير المنار جـ ١١ ص ١٢٩ ، ١٣٠

المقدمة الثامنة : [قصة النفاق فى صدر الإسلام]

كانت المدينة(١) ـ قبل الإسلام مكونة من خمس قبائل : اثنتان من العرب ، هما : الأوس والخزرج ، وثلاث من اليهود ، هم : بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ، وكانوا يعيشون على النظم القبلية .

وقد دب الخلاف بين الأوس والخزرج ، وقامت بينهم حروب عديدة بسبب خلافات قبلية كانت تثيرها النعرة القبلية ، وكان النصر تارة للأوس على الخزرج ، وغالبا للخزرج على الأوس . وقد اشتدت هذه الحروب وامتدت حتى شارك فيها اليهود فتحالفت قريظة والنضير مع الأوس ، وتحالفت بنو قينقاع مع الخزرج ومن هذه الحروب يوم السرارة ، ويوم فجار ، ويوم بعاث .

وكان يوم بعاث آخر عشرة معارك تقريبا خاضها الأوس والخزرج حتى سئموا القتال ، وابتدأوا يميلون إلى الوئام والسكينة ، وحاولوا أن يقلدوا دول العرب التي نشأت فى الحيرة والشام وكندة تحت النظام الملكى .

وقد روى المؤرخون:(٢) أن الأوس والخزرج اتفقوا بعد أن سئموا القتال على أن يتوجوا ملكا عليهم : عبد الله بن أبى بن سلول ، وصاروا يجهزون لهذا التتويج إلى أن دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وعقد معاهدة بينه وبين الأوس والخزرج واليهود .

وبهذا انصرف الناس عن تتويج عبد الله بن أبى بن سلول .

• ولما فقد عبدالله بن أبى التاج الذى كان يمنى به نفسه ، والسلطان الذى

---

(١) كان اسمها قبل الإسلام « يثرب » .

(٢) النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . للأستاذ إبراهيم على سالم ص ٣٠ .

كان يحلم به : طار قلبه شعاعاً ، والتاعت نفسه ، وظل يحقد على الإسلام والمسلمين حتى آخر لحظة فى حياته .

• وأروى فيما يلى بعض الحوادث التى تدل على الجهامة والعبوس التى لقى بها ابن أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخوله المدينة .

فعند شروع النبى صلى الله عليه وسلم فى الانتقال من « قباء » إلى « المدينة » عرج على عبد الله بن أبى يريد النزول عنده ذائقاً له ، وكان جالساً محتبياً فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم يريد النزول عنده ، قال : اذهب إلى الذين دعوك وأنزل عليهم . فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله لاتجد فى نفسك من قوله . فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه ، فما زد بالحق الذى أعطاك الله شَرِق فذلك الذى فعل به مارأيت فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• ومن ذلك أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف وأردف خلفه أسامة بن زيد بن حارثة ، يعود سعد بن عبادة رضى الله عنه من مرض أصابه ، وذلك قبل موقعة بدر ، فمر بعبد الله بن أبى – وهو فى ظل أطمة مزاحم ، وحوله أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود ، وفى المسلمين عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ! فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فسلم ثم جلس قليلا وتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر ، وابن أبى زام لايتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته ، قال يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغشه به ، ولاتأته فى مجلسه بما يكره منه ، فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به ، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله مانحب ، ومما أكرمنا الله به ، وهدانا له .

واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون الفعال فلم يزل

بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكنوا ، فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لم تزل تذل ، ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فدخل على سعد بن عبادة ، وفى وجهه بعض الغضب . فقال : والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً، ولكأنك سمعت شيئاً تكرهه . قال : ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ — يعنى عبد الله بن أبى — ثم أخبره بما قال ، فقال سعد : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً .

* * *

● فلما جاءت غزوة بدر .. فرح عبد الله بن أبى ، ومن على شاكلته من المنافقين . وأيقنوا أنها النهاية لهذا الدين الجديد ولأشياعه : ووصف الله — سبحانه — هذه الأمانى الواهمة بقوله تعالى : (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) .

فلما انتصر المسلمون فى هذه المعركة ، كان هذا النصر بمثابة خنجر موجه إلى صدر عبدالله بن أبى وأشياعه من المنافقين واليهود .. حتى إنهم لم يصدقوا بشارة النصر ، وظلوا يرجفون ..

فقد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة : بشيراً لأهل العالية وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة — وهما من أقسام المدينة — يبشران أهلها بما فتح الله على المسلمين ، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء .

فأما كعب بن الأشرف اليهودي فقد صار يكذبهما ويقول : إن كان محمد قتل هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها ...

وأما أحد المنافقين فإنه لم يلجأ إلى التكذيب كما فعل اليهودي ولكنه اخترع من عند نفسه رواية لا أصل لها ، وصار يرجف بها في المدينة ، ولقى أبا لبابة رضي الله عنه ، وقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً ، فقد قتل محمد وغالب أصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب .

قال أسامة بن زيد : فبلغني ذلك ، فجئت حتى خلوت بأبي ، وسألته عما يقول الرجل ، وقلت له : أحق ما تقول ؟ قال : إي والله إنه الحق يا بني ، فقويت نفسي ، ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت أنت المرجف برسول الله ؛ لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فيضرب عنقك ، فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه .

* * *

فلما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، منتصراً مظفراً ، وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ، قال عبدالله بن أُبي بن سلول : « هذا أمر قد توجه » ..

ثم أظهر الدخول في الإسلام ، ودخلت معه طوائف ممن هم على طريقته ونحله ..

وكان هذا هو البدء الحقيقي لحركة النفاق في المدينة ، ومن حولها من الأعراب .

صور المنافقين

في سور القرآن الكريم

في سورة البقرة

(١) فقدوا النور والأمان :

(الآيات ٨ - ٢٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض . قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس . قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا . وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون .

أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) .

* * *

في هذه الآيات — من سورة البقرة المدنية[1] — تصوير لطبيعة بعض

---

(١) عنيت سور المدنية بالحديث عن المنافقين ، وفضح أسرارهم ، ونشر أخبارهم ، ذلك لأن النفاق — كما أسلفت سابقاً — نشأ في المدينة — ولم يكن في مكة نفاق ، بل على

النفوس البشرية ، وما فيها من التواء وعتمة وحيرة وخداع ... إنها نفوس لا تقوى على تحديد موقفها ، وتخاف أن تعرّف بنفسها ، فلا هي مع الإيمان الصريح ، ولا هي مع الكفر الصريح ..

إنهم يدّعون الإيمان بالله وباليوم الآخر .. وما هم بمؤمنين !

ويدعون أنهم مصلحون ... وهم مفسدون ، ولكن لا يشعرون !

ويدعون أنهم ليسوا بسفهاء ... وهم سفهاء ، ولكن لا يعلمون !

إنهم يخادعون ربهم ، في خفة وتذبذب ، والخداع وتحوم .. وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون !!

وهم مع هذا كله ، وبسبب هذا كله ، يترددون بين خواطر النفس ، وبين تصورهم بلا دوام ...

وعرض حينا هذا النص الكريم — وأمثاله — حقيقة كبيرة ، جديرة بأن يتدبرها المؤمنون ، ليتطهروا من ريبتهم ويثبتوا أنهم على الطريق المستقيم ... وليتدبرها أيضا المؤمنون ليحذروا ويحترسوا ويترقبوا ويعلمون أن كل نفوسهم ، وخفايا تحركهم ... لا تخفى على الله العليم بالسرائر والضمائر !!

وهذه الصفات التي تحملها الآيات .. لا تتوقف عند زمان ، ولا تحدد مكان ، ... بل نلتقي بها كل يوم ، في كل أرض !!

= فمكان من ذلك كان فيها يستكرهون الذين يظهرون الكفر ويبطنون الإيمان كعمار بن ياسر ومن على شاكلته أو نحوه الذي نزلت فيه : (النحل ١٦ : ١٠٦ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) .

إن نصوص القرآن لا تتقيد « بأسباب النزول » فهى أوسع وأشمل وأبقى وأخلد !

وقد أعطتنا هذه الآيات بعض أخبار المنافقين ، وكشفت لنا الستار عن المخبوء من أسرارهم ، فما عاد يحجبهم عنا حجاب ، وما عاد يخفيهم عنا نقاب !

إنهم قوم سدّت فى وجوههم كل منافذ العلم والحكمة والنور .. فلم يعودوا يبصرون ، ولا يسمعون ، ولا يعقلون ، ولا يفقهون .. ! (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) !

وبرغم الحيرة التى استولت عليهم ، والضلال الذى أخذ عليهم كل طريق ، تراهم مشغولين بالدعاوى العريضة ، دعاوى الإيمان .. والإصلاح .. والتقوى مجرد كلام يقولونه ، لا يقين يلتزمونه !

(يخادعون الله والذين آمنوا) هكذا يتوهمون ، ولكن الحقيقة أنهم (ما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

ثم يمضون فى طريقهم العابث فيزعمون ، أنهم يستهزئون بالمؤمنين (وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون) أرأيت كيف يستهزئ الباطل بالحق ، والغواية بالهداية ، والنفاق باليقين ؟ أرأيت ؟ ... ! ولكن .. ماذا وراء هذا الاستهزاء الرخيص ، وماذا أمامه ؟ .. لا شىء ... إلا ضحكة بلهاء عربيدة .. ثم خرس اللسان البذىء إلى الأبد .. (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) !

○ ولا يقولن قائل كيف يستهزئ الله .. وقوله فصل ليس بالهزل ، وحكمه دائماً عدل وفضل ؟ !

فهذا فن بديع من فنون القول نسميه « المشاكلة » تراه في غير موضع من الكتاب الكريم (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٢ : ١٩٤ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ... وكذلك ما نحن بصدده من قوله تعالى : (الله يستهزئ بهم) (٣ : ٥٤ ومكروا ومكر الله) (٨٦ : ١٥ إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا) إذ ليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد : إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وكيدهم ، ومثله : (٤ : ١٤٢ يخادعون الله وهو خادعهم) (٩ : ٧٩ فيسخرون منهم سخر الله منهم) .

• إن الآيات الكريمة في هذا النص الكريم ، وغيره ... تتبع دعوى النفاق فتدحضها واحدة تلو الأخرى.. فهم في أول هذا النص قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهي ـ كما ترى ـ دعوى لا تحمل معها أي دليل .. ولذلك يردها الله حيث يقول : (وما هم بمؤمنين) ! ! .

وفي قوله تعالى : (وما هم بمؤمنين) إدخال لهم في زمرة الكافرين ، أو فيما دون زمرة الكافرين ... !

ومن عجيب ما قرأت : أن « محمد بن كرام السجستاني » الذي تنسب إليه فرقة « الكرامية » : يرى أن الإيمان قول اللسان ، وإن لم يعتقد بالقلب ، محتجاً بقوله تعالى : (٥ : ٨٥ فأثابهم الله بما قالوا) إذ لم يقل : بما قالوا وأضمروا ، وبقوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله : فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » ! .

وأقول ، كما يقول القرطبي (١) : « وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر

---

(١) جـ ١ ص ١٩٣ .

لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان معرفة بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان »(١) .

وأقول : كما يقول القرطبي ـ أيضا ـ : « ما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ، ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد » .

• (فى قلوبهم مرض) مرض الضلال والحيرة .

(فزادهم الله مرضاً) مرض الحقد والحسرة : إذ نصر الله المؤمنين وأعلى كلمة الدين .

• (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) لا تثيروا الحروب ، ولا توقظوا الفتنة النائمة ، ولا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين !! (قالوا : إنما نحن مصلحون) هكذا .. هكذا تمرقوا فى الفساد حتى الفقود ، وعشوا فى الضلال حتى استمرأوه ، وحسبوه صلاحاً وهدى ، وكانوا كما قال الله تعالى : (٣٥ : ٨ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) (٦ : ٤٣ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) (١٨ : ١٠٣ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

• وبعد أن نهوا عن المنكر ، وقيل لهم : (لا تفسدوا فى الأرض) أمروا بالمعروف ، فقيل لهم : (آمنوا كما آمن الناس) وهذا أسلوب الإسلام وطبيعته ، التخلية أولا ، والتحلية ثانياً ...

• ولكنهم تنوا بالنهى ، وقالوا : (إنما نحن مصلحون) وتمردوا بالأمر .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه

قالوا: (أنؤمن كما آمن السفهاء)؟ وقيل لهم، وقوله الحق (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)!

• إنهم ألفوا الطغيان وحذقوه، فكانت عاقبة أمرهم ما قال الله: (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ولهذه الآية نظائر فى الذكر الحكيم كقوله تعالى: (١٩ : ٧٥ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) (٣ : ١٧٨ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) (٦ : ١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون).

والطغيان: الغلو فى العتو، ومجاوزة الحد فى الكفر.

والعمه: — مثل العمى — غير أن العمى عام فى عمى البصر وعمى البصيرة. أما العمه فهو عمى البصيرة وحدها!!

• (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) لم يكن لديهم هدى حتى يبيعوه، ولا إيمان حتى يضيعوه، وإنما كانت أسباب الهدى ميسرة لهم لو أرادوا، وسبله ممهدة بين أيديهم لو أحبوا، ولكنهم أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير!

• فكان عاقبة أمرهم خسرا (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) تقرير لما هم عليه من خسران وبوار، أو دعاء عليهم باستمرار الفشل والخسارة والصغار!.

* * *

ثم يضرب الله للمنافقين مثلين..

ونلتقى «بابن القيم» فى بحث بديع له حول هذين المثلين..

قال رحمه الله وأثابه فى كتابه: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو

المعطلة والجهمية[١] » : « في هذه الآية ، شبه سبحانه ، أعداءه المنافقين : بقوم أوقدوا نارا لتضيء لهم ، وينتفعوا بها ، فلما أضاءت لهم النار ، فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم وأبصروا الطريق — بعد أن كانوا حيارى تائهين — فهم كقوم سفر[٢] ضلوا عن الطريق ، فأوقدوا النار تضيء لهم ، فلما أضاءت لهم — فأبصروا وعرفوا — طفئت تلك الأنوار ، وبقوا في الظلمات لا يبصرون ، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث — فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بأذنه ، ويراه بعينه ، ويعقله بقلبه — وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئا ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها ، وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل ، والقولان متلازمان .

وقال في صفتهم : (فهم لا يرجعون) لأنهم قد رأوا في ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا .

وتأمل قوله تعالى : (أضاءت ما حوله) كيف جعل ضوءها خارجا عنه منفصلا ، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه ، لم يذهب ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عرضا والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة في معدنها .

وتأمل قوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل : بنارهم ، ليطابق أول الآية ؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق — وهو النور — وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق — وهو النار —

وتأمل كيف قال : (بنورهم) ولم يقل : بضوئهم ، مع قوله : (فلما أضاءت ما حوله) لأن الضوء زيادة في النور : فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأوهم

(١) ص ١٢ وما بعدها .   (٢) مسافرون .

الذهاب بزيادة فقط دون الأصل. فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادة. وأيضاً فإنه أبلغ في النفي، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم: وأيضاً فإن الله تعالى سمى كتابه (نوراً) ورسوله صلى الله عليه وسلم (نوراً) ودينه (نوراً) وهداه (نوراً) والصلاة (نور) فذهابه سبحانه بهم: ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها بدلا عن النور — فبدلوا الهدى والنور، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة ما أخسرها وصفقة ما أشد غبنها.

وتأمل كيف قال تعالى: (ذهب الله بنورهم) فوحده، ثم قال (وتركهم في ظلمات) فجمعها. فإن الحق واحد: هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل إليه سواه وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا بالأهواء والبدع ... بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل كقوله تعالى: (٢٥٧:٢ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى: (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فجمع سبيل الباطل، ووحد سبيل الحق.

قال الحسن رحمه — معقباً على هذا المثل — هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر.

ويقول « ابن القيم » عن المثل الثانى :

« ثم ضرب الله ـ سبحانه ـ لهم مثلا آخر مائياً . .

فشبه الهدى الذى هدى به عباده بالصيب : لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر . وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى : بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق . ولا نصيب له ـ فيما وراء ذلك ـ مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب : وأن تلك الظلمات التى فيه . وذلك الرعد . والبرق . مقصود لغيره . وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب : فالجاهل لفرط جهله ـ يقتصر على الإحساس بما فى الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد . وتعطيل المسافر عن سفره . والصانع عن صنعته . ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب فى الحياة والنفع العام . وهكذا شأن كل قاصر النظر . ضعيف العقل . لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب . وهذه حال أكثر الخلق ـ إلا من صحت بصيرته ـ فإذا رأى ضعيف البصيرة ما فى الجهاد من التعب والمشاق . والتعرض لإتلاف المهجة . والجراحات المؤلمة . لم يقدم عليه : لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة . والغايات التى إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون .

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان حين يرى ما فى القرآن من الوعد والوعيد . والزواجر والنواهى . والأوامر الشاقة على النفوس التى تفطمها عن رضاعها من ثدى المألوفات والشهوات ـ والفطام على الصبى أعسر شىء وأشقه ـ والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء . وأدرك الحق علما وعملا ومعرفة . فهو الذى ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه ـ من الرعد والبرق والصواعق ـ ويعلم أنه حياة الوجود .

هذا كلام ابن القيم حول المثلين نقلناه ببعض التصرف ، وهو كلام كما ترى ينبغى أن يتأمله المسلم ويتفهمه .

ولقد عرفت — وعرفت — من المثلين كيف أن المنافقين فقدوا النور والأمان فى هذه الحياة الدنيا .

وتوضح لنا « سورة الحديد » كيف أنهم فقدوا النور والأمان فى الحياة الآخرة كذلك . . . (٥٧ : ١٢ — ١٥ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) .

* * *

(ب) أمانة الكلمة :

(الآيات : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

* * *

• تعرض هذه الآيات صورة لنموذج بشرى من نوع غريب !!

إنه المخلوق الذى يقدم نفسه لك من خلال حديثه ، فتراه وكأنه صيغ من

الفضائل والنبل والحب والخير والطهارة ...! ثم تخبره فتجده مسخاً غريباً ينكر كل القيم، ويتنكر لكل المقدسات.

وقد اختلف المفسرون حول سبب نزول هذه الآيات ... والذي نميل إليه أنها عامة في جميع من أظهر غير ما أضمر. قال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء إنها: «نزلت في كل مبطن كفراً أو نفاقاً أو كذباً أو إضراراً، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك».

• وقريب من معنى الآية ما رواه الترمذي في بعض كتب الله تعالى: «إن من عباد الله قوماً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، وقلوبهم قلوب الذئاب، يختلون الدنيا بالدين، يقول الله تعالى: أبي يغترون، وعليّ يجترئون، فبي حلفت لأسلطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران»!!

• (ومن الناس من يعجبك قوله) أما عمله فهو فساد وإلحاد ومراوغة! وحتى الكلام لا يستقيم له إلا إذا كان في أمور (الحياة الدنيا) وشئونها! لأنها مبلغ علمه، وغاية همه.

أما أمور الدين والأخلاق واليوم الآخر .. فبينه وبينها بعد ما بين المشرقين!!

• (ويشهد الله على ما في قلبه) اليمين الفاجرة هي دائماً «الجُنة» التي يستتر وراءها ... وما أكبره جرماً أن يشهد الإنسان الله وهو كاذب!! يقول الشيخ رشيد رضا: قال العلماء إن هذه — يعني: قولهم الله يشهد أو يعلم الله — كذا آكد من اليمين. وعن بعض الفقهاء من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى» ثم يقول: «وأقول إن أقل ما يدل عليه: عدم المبالاة بالدين ولو لم تقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل، فهو فسق لا يصدر إلا عن منافق».

• (وهو ألد الخصام) شديد الخصومة . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » .

وهكذا هم المنافقون - إن خاصموا فجروا . واستباحوا كل صنوف الكيد والدس والغيبة والمكر والكذب والوقيعة ! !

• فلقى المنافق . فيعجبك حديثه ونفاقه (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) لأنه ألف الخرب كالبوم . ويحب الظلام كالخفافيش . . !

• ويرفض المنافق أن تقول له (اتق الله) أو أن تحدثه أي حديث عن الله . إنه يعيش في « برجه العالي » فيرى الناس كلهم دونه ! . . إنه كما يقول الله تعالى : (٢٢ : ٧٢ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) .

• (فحسبه جهنم) فيها كفايته وعقوبته : جهنم التي وقودها الناس والحجارة . جهنم التي يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون . جهنم الحطمة : نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . جهنم التي لا تبقي ولا تذر . جهنم التي تكاد تميز من الغيظ ! !

(ولبئس المهاد) وآه . . مما تحمله كلمة (المهاد) من سخرية قاصمة ، ولوعة لا تنتهي ! !

* * *

عبر ثلاث آيات . . قدم القرآن الكريم هذه الصورة الواضحة الملامح ، البينة السمات . هذا النموذج البشري الذي نلقاه كل يوم . . في كل سبيل . .

إنه « نفاق الكلمة » . .

والكلمة اعتبارها وحسابها في نظر الإسلام . وتشريع الإسلام . كيف

(تقال) . وكيف (تكتب) وكيف (تسمع) إليه . كيف (تلتزم) بها الإنسان ، وكيف (يتحمل) تبعاتها ثواباً أو عقاباً ! !

حتى الكلمة التى لم تولد بعد ، ومازالت تعيش فى الضمائر هواجس ووساوس ، عند الله علمها : (٥٠ : ١٦ – ١٨ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

فليتق الله أولئك الذين حملوا أمانة الكلمة . .

إن الكلمة فى فم الصحفى . . أمانة . .

والكلمة فى فم الإذاعى . . أمانة . .

والكلمة فى فم المعلم . . أمانة . .

والكلمة فى فم المؤلف . . أمانة . .

والكلمة فى فم الخطيب . . أمانة . .

والكلمة فى كل الأفواه . . أمانة . .

ويامن حملتم أمانة الكلمة : (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

فى سورة آل عمران

(١) النفاق اليهودى المتآمر :

(الآية : ٧٢ . وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) .

* * *

• جاء فى « سبب نزول » هذه الآية أن عبد الله بن الصيف ، وعدى ابن زيد ، والحارث بن عوف : ائتمروا فيما بينهم على أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين : حتى إذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم : فيظن ضعفاء الإيمان أنهم لا يهدفون إلا إلى الحق ، ولا يسعون إلا وراءه ، ولهذا أسلموا : فلما بان لهم عوار الإسلام وبطلانه ارتدوا عنه وهجروه ! !

ولهذا جاء فى آخر الآية : (لعلهم يرجعون) أى : لعلهم يرجعون عن الإسلام كما رجعتم ، ويكفرون به كما كفرتم ! فتكونون سواء ! !

• وتظهر الفائدة من « فضح » هذه المؤامرة - كما يقول الرازى - من وجوه ثلاثة :

الأول : أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب : فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى : أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة : لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين . ولولا هذا الإعلام لكانت ربما أثرت فى قلب بعض مَنْ فى إيمانه ضعف ! !

ذلك : أن اليهود لو نجحوا في هذه الحيلة [illegible]

الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس !!

• وهذه الآية تكشف لنا سر تشريع « قتل المرتد » ؛ فإن الإسلام قصد من وراء هذا التشريع إلى تخويف أولئك الذين يدبرون المكائد لإرجاع الناس عنه بالتشكيك فيه .

* * *

• والسؤال الذي ينبغي أن نواجهه ونحن نتأمل وجه هذه الآية — هو : هل نجح هذا المخطط اليهودي القديم في صد الناس عن الإسلام ؟

والجواب : لا .. فإن المتآمرين الذين كانوا يدخلون في الإسلام أول النهار .. كان الإسلام يغزو قلوبهم بنوره وهداه .. ويستولي على مشاعرهم ووجدانهم .. فما كانوا يستطيعون أن يفلتوا من تأثيره ، وما كانوا يطيقون الحياة بعيداً عن ظلاله !!

ولذلك وجدنا المتآمرين يتواصون فيما بينهم : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) !!!

• والسؤال الثاني الذي ينبغي أن نواجهه أيضاً .. ونحن نتأمل وجه هذه الآية — هو : هل نجح المخطط الصهيوني الاستعماري — الحديث في غزو الإسلام فكرياً وحضارياً .. وفي زعزعة قيمه في نفوس بعض أبنائه !!

— ومما يحز في النفس .. ويقض المضجع : أن يكون الجواب هذه المرة « نعم » !!

نعم .. تحولت أقلام وأفلام وندوات ومؤتمرات وبحوث ومقالات ومؤلفات إلى تشويه جلال الإسلام .. وتضليل أهله .. تحت اسم البحث العلمي والدراسات الاستشراقية !! حتى وجدنا الآلاف « غير المؤلفة » من حملة الأسماء الإسلامية .. يخرجون على الناس من أروقة الفلسفة والفكر والبحث والفن

والشعر وما يجدونه .. ثم يشهدون على الناس أنهم درسوا الإسلام ووجدوه : وجدوه ديناً جامداً ، وعملاً رجعياً متخلفاً لا يتفق مع الحياة ، ولا يواكب التطور !!!

ولكى تكون « شهاداتهم » ذات قيمة . !

فإنهم يبرزون « البطاقة الشخصية » التى تثبت أنهم مسلمون !! و« المؤهل » العلمى الذى يثبت أنهم « مستغربون » !!

• إنهم يحملون الأسماء الإسلامية . وجه النهار !!

ثم هم بأفعالهم وأقوالهم .. يكفرون آخره !!

* * *

(ب) موتوا بغيظكم :

(الآيات : ١١٨ — ١٢٠ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم . وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط) .

* * *

• قالوا : إن هذه الآيات نزلت فى اليهود : لأن السياق والسبق فيهم . وقيل : إنها نزلت فى منافقين لقوله تعالى فيما بعد : (وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى فى سورة البقرة : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون) .

● والآيات تدمغ المنافقين بعدة اتهامات :

١ — لا يألونكم خبالا .

٢ — ودوا ما عنتم .

٣ — قد بدت البغضاء من أفواههم .

٤ — ما تخفى صدورهم أكبر .

٥ — ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم .

٦ — إذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ !!

٧ — إن تمسسكم حسنة تسؤهم .

٨ — وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ! !

ومع هذا فهذه كلها اتهامات لا تخيف أهل الحق ! ! إنها غثاء كغثاء السيل و « فقاقيع » كفقاقيع « الصابون » !!

ولذلك كان الرد عليهم كلهم . . (قل موتوا بغيظكم) !!

● و (البطانة) في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) هم الأصدقاء الذين تفضي إليهم بسرك ، وجميع أمورك !!

● وقول الله تعالى : (لا يألونكم خبالا) معناه : لا يقصرون في إفسادكم ، وإيقاع الضرر بكم .

وقوله : (ودوا ما عنتم) معناه : تمنوا ما يهلككم ، لأن العنت هو شدة الضرر والمشقة !!

● (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي : ظهر البغض مستترا ، وانكشف الحقد مخبوءا ، فتنضح على الوجوه ، وتنم عنه الألسنة ، وتسيل من بين الشفاه ... إنهم على الرغم من ضبط النفس ، والتحكم الشديد ، وعدم البوح بحقد القلوب

تنفلت منهم بعض البوادر التي تنم عما يضمرون ، وتدل على ما يكتمون . وذلك لأن ألوان النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات الألسنة !!

(وما تخفي صدورهم أكبر) مما ظهر .

(قد بينا لكم الآيات) وأرشدناكم إلى ما خفي عنكم من أمر أعدائكم والله أعلم بأعدائكم : (إن كنتم تعقلون) .

• (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) يقول ابن جرير فيما يحدث به عن قتادة : « فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوي إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » !!

• (وتؤمنون بالكتاب كله) فأنتم تؤمنون بكتابهم ، وهم لا يؤمنون بكتابكم . يقول الزمخشري : « وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم » ونحوه قوله تعالى : (٤ : ١٠٤ فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) .

• (وإذا لقوكم قالوا : آمنا) نفاقاً وتغريراً .

• (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أي : تحسراً وتأسفاً ؛ حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلا .

وعض الأنامل عادة النادم العاجز ، والمغتاظ إذا عظم حزنه على خيبة أمله !

• (قل : موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بأن يشتد غيظهم ، ويستبد بهم حتى يقتلهم ويهلكهم . والمراد بزيادة الغيظ : زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزة أهله .

• (إن الله عليم بذات الصدور) أي : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً ، فهو — سبحانه — عليم ببواطن الأمور ، وخفايا الصدور .

• (إن تمسسكم حسنة تسؤهم) والحسنة : هي الظهور على العدو ، وانتصار المؤمنين ، واندحار الكافرين ، والتمكين لعباد الله في الأرض !

• (وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) والسيئة تكون بهزيمة ، أو الاختلاف ، أو ذهاب الريح ، أو الجدب ، أو شدة البلاء .

وتأمل لفظ : (إن تمسسكم حسنة) ولفظ : (وإن تصبكم سيئة) .

فقد عبر — سبحانه — في جانب الحسنة (بالمس) وفي جانب السيئة (بالإصابة) مما يدل على أن الشيء القليل من الخير إذا ناله المسلمون فزع له اليهود والمنافقون ، وأما إذا أحدقت المصائب بالمسلمين ، وأحاطت بهم النكبات من كل جانب ، فإن هذا يبهج مشاعرهم فرحا لهم ، [illegible] !

• (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) هذه بشارة بالنصر ، وإشارة إلى الطريق .

وما طريق النصر ، إلا الصبر والتقوى .

الصبر على الشدائد والمحن والمصائب والثبات على طاعة الله ، والكف عن معاصيه .

والتقوى : إنما تكون بالحرص على مرضاة الله ، والبعد عما يسخطه [illegible] .

• (إن الله بما يعملون محيط) قرئ بياء الغيبة (يعملون) على معنى أنه سبحانه — يعلم ما يدبره أعداؤكم لكم من كيد ومكر : [illegible] ويحبط كيدهم ، وما يدبرون !!

وقرئ بتاء الخطاب (تعملون) أي : بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم له أهل من الجنة والمغفرة .

* * *

وبعد : فهذه آيات الله بين أيدينا .. وهل استمعنا وتدبرنا ما يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .. ترى هل استجبنا لما يحيينا ؟

وهل انتفعنا بالدروس المستفادة ؟

ها هم أولاء أعداؤنا وأعداء ديننا الذين تآمروا بنا .. وبأرضنا .. وبوجودنا .. وبتراثنا .. وما زالوا يتآمرون :

(قل موتوا بغيظكم) ؟

* * *

(د) غزوة التمحيص :

(الآيات : ١٦٦ - ١٦٨ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .

* * *

• جاءت هذه الآيات فى سياق الحديث عن « غزوة أحد » .

وقد نزل فى شأن غزوة أحد (ستين) آية من سورة آل عمران : تبدأ بقوله تعالى - فى الآية ١٢١ - : (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) . وتنتهى بقوله تعالى - فى الآيتين ١٧٩ ، ١٨٠ - (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ، ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) .

غزوة أحـد :

ولكي نعي ما تضمنته الآيات التي صدرنا بها هذا البحث : من مواقف المنافقين المدينة ، ومواقفهم الخزية ؛ ينبغي أن نقف قليلا لنراجع ما رواه كتاب « السيرة » عن غزوة أحد (١) ؛ قالوا :

• لما خذل الله المشركين في « غزوة بدر » ورجعت فلولهم إلى « مكة » مقهورين ، موتورين نذر أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً !!

ولما رجع إلى مكة أخذ يؤلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وقد رصد المشركون لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مال العير التي نجا بها من الشام ، والتي كانت السبب المباشر « لغزوة بدر » !! وكان مال هذه العير ـ كما في السيرة الحلبية : خمسين ألف دينار [illegible] !!

• فاجتمعت قريش للحرب ، وخرجت بحدها وجدها وأحابيشها (٢) ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة فكانوا نحو ثلاثة آلاف (٣) وأخرجوا معهم نساءهم التماس الحفيظة ، وأن لا يفروا : فإن الفرار [illegible] عار . وكان مع أبي سفيان ـ وهو القائد ـ زوجته هند بنت عتبة ؛ [illegible]

(١) أحد ـ بضمتين ـ جبل على نحو ميل من المدينة (جهة الشمال) .
(٢) الحد ـ بفتح المهملة ـ : البأس ، والجد ـ بفتح المعجمة ـ : العظمة أو الغنى . والأحابيش : حلفاء قريش من [illegible] سموا بذلك لأنهم تحالفوا [illegible] في الحبشي ـ وهو بضم الحاء ـ جبل بأسفل مكة ؛ تحالفوا أنهم مع قريش يد واحدة ، ما سجا ليل ، ووضح نهار ، وما رسا حبشي مكانه .
(٣) قال ابن كثير في البداية : كانت في شوال سنة ثلاث . قاله الترمذى وقتادة وموسى بن عقبة وابن إسحاق ومالك .

غلام « وحشي » الحبشي الذي أرسله مولاه جبير بن مطعم ليقتل « حمزة » عم النبي صلى الله عليه وسلم بعمه طعيمة بن عدي الذي قتل ببدر !! وكان هذا الحبشي ماهراً في الرمي بالحربة على بعد ، قلّما يخطئ . فكانت « هند » كلما رأته في الجيش تقول له : « ويهاً أبا دسمة ! اشف واشتف » ! فتلهبه بالسخرية سكرناه .

وذكر الحلبي : أنهم ساروا ... بالقيان والدفوف والمعازف والخمور !!

فلما استشار النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى سفيان : استشار أصحابه في الخروج إليهم أم يمكثوا في المدينة !! وكان رأيه هو — صلى الله عليه وسلم — أن يتحصّن المسلمون بالمدينة : فإن دخل العدو عليهم قاتلوه على أفواه الأزقة ، وقاتله النساء من فوق البيوت !!

وقد وافقه — صلى الله عليه وسلم — على هذا الرأي أكابر المهاجرين والأنصار !!

كما وافقه « عبد الله بن أبي بن سلول » لا عن حكمة وسياسة وبعد نظر ، ولكن عن جبن وخور ورغبة في التخلف وإيثار العافية !!

وقد أشار على النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة أكثرهم من الشباب ، وممن كان قد فاتهم الخروج يوم بدر ، لشدة رغبتهم في القتال !! فما زالوا يناشدونه — صلى الله عليه وسلم — حتى دخل فلبس لأمته[1] بعد صلاة الجمعة ، وكان قد أوصاهم في خطبته ، ووعدهم بأن لهم النصر ما صبروا . ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) اللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح .

ولم يكن لنا ذلك ؟ وقالوا له : استكرهناك ، ولم يكن لنا ذلك : فإن شئت فاقعد » فقال : « ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه » !

• وفي سحر يوم السبت خرج بألف . فلما كانوا « بالشوط » بين المدينة وأحد انعزل عنه عبدالله بن أُبي بن سلول – زعيم المنافقين – بنحو ثلث الجيش !! وقال : « أطاعهم وعصاني – وفي رواية : أطاع الولدان ومن لا رأي له – فما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس » فرجع بمن اتبعه من قومه أهل النفاق والريب . فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : « ياقوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم ، تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . ولكن نرى أنه لا يكون قتال .

• وقد كان المسلمون نحو ثلث المشركين الذين خرجوا إليهم ، فأصبحوا وقد ذهب من الثلث ثلثه !! وهمت بنو سلمة من الأوس وبنو حارثة من الخزرج أن تفشلا فعصمهم الله تعالى ، وفيهم نزلت الآية الكريمة . (الآية ١٢٢ — إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

• وقد كان خروج المنافقين من صفوف المؤمنين وتراجعهم كما قال تعالى في مثل ذلك الموقف يوم تبوك : (٩ : ٤٧ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) : وإذا ارتأى عبدالله بن أُبي عدم الخروج ليتقي أمر القتال وخطره حرصا على حياته ، ورغبة منه في إبطال كلمة الله . فكانت موافقته للرسول – صلى الله عليه وسلم – في الرأي موافقة صورية . إذ أنه كان مخالفا له في علة عدم الخروج وسببه .

• ومضى النبي – صلى الله عليه وسلم – بأصحابه حتى مرّ بهم في حرة بني

حارثة ، وقال لهم : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب — قرب — لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمة — أخو بنى حارثة بن الحارث — : أنا يا رسول الله . فنفذ به فى حرة قومه بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك فى مال لربع بن قيظى — وكان رجلا منافقاً ضرير البصر — . فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قام يحثو فى وجوههم التراب ، ويقول : إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطى (١) . قال ابن هشام : وقد ذكر لى أنه أخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال : والله لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . فابتدره القوم ليقتلوه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتلوه !! فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » !!

● ومضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمر بالقتال » .

● فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال ، وهو فى سبعمائة فيهم خمسون فرساً ، وظاهر بين درعين — أى : لبس درعاً فوق درع — واستعمل على الرماة — وكانوا خمسين — عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، وقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك : لا نؤتين من قبلك ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى المجنبتين : الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى ، المنذر بن عمرو .

● ثم استعرض — صلى الله عليه وسلم — الشبان يومئذ ، فرد من استصغره عن القتال ، وأجاز أفراداً من أبناء الخامسة عشرة ، قيل : لسنهم ، وقيل ،

---

(١) الحائط : البستان .

لجنبته وطاقتهم ، وهو الصواب ؛ فإنه كان قد رد سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فقيل له : يا رسول الله إن رافعاً رام فأجازه ، فقيل له : فإن سمرة يصرع رافعاً فأجازه . وروى أنهما تصارعا أمامه .

● وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل معهم مائتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل ، وابتدأت الحرب بالمبارزة .

ولما اشتبك القتال ، والتحم الناس بعضهم ببعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

ويها بني عبد الدار ... ويهاً حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

● وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول عند سماع نشيد النسوة : « اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر عبد بن عمرو بن صيفي (١) .

---

(١) سيأتي تفصيل خبره عند الحديث عن أخبار مسجد الضرار « في سورة التوبة » وهو أحد رءوس المنافقين .

وكان رأس الأوس في الجاهلية ؛ فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالعداوة ، وخرج من المدينة إلى مكة يؤلب قريشاً على قتاله ، ويزعم أن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه ، وكان يسمى « الراهب » فسماه النبي — صلى الله عليه وسلم — « بالفاسق » . ولما برز نادى قومه ، وتعرف إليهم . فقالوا له : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! ! ، فقال : لقد أصاب قومي بعدي شر !! .

• وقد أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاء حسناً :

— فهذا هو ... عبد الله بن جحش يدعو ربه قائلاً : اللهم إني أدعوك أن ألقى العدو غداً . فيقتلوني . ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ، ثم تسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك !! .

— وهذا هو .. عمرو بن الجموح — وقد كان أعرج شديد العرج — وكان له أربعة بنين شباب ، يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم !! إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه . فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة . فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد ؛ فأتى عمرو ابن الجموح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسول الله : إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك . والله إني لأرجو أن أستشهد . فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد » وقال لبنيه : « وما عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ! » فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل يوم أحد شهيداً .

— وهذا هو ... أبو دجانة الذي أعطاه النبي — صلى الله عليه وسلم —

سيفه(١) ، وأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة « عصابة الموت » وهكذا كانت تقول له إذا تعصب بها ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيول(٢) أضرب بسيف الله والرسول

قال ابن إسحق : فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله . إلى آخره . قال : ومما كان منه أنه وصل إلى هند امرأة أبى سفيان قائد المشركين فوضع السيف على مفرق رأسها ولم يقتلها ـ يقول : فأكرمت سيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أقتل به امرأة !!

• ولما انهزم المشركون وولوا إلى نسائهم مدبرين ، ورأى الرماة من المسلمين هزيمتهم تركوا مراكزهم الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه . وقالوا : يا قوم الغنيمة الغنيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرجعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة !!

فلما رأى فرسان المشركين الثغر خلا من الرماة كروا حتى أحاطوا بالمسلمين.

• قالوا : وصرخ صارخ بأعلى صوته : إن محمداً قد قتل ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قد سقط فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر الفاسق

---

(١) روى أحمد وابن إسحاق وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفاً يوم أحد ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ حتى قام أبو دجانة فقال : وما حقه ؟ قال : أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه » .

(٢) الكيول ـ بتشديد الياء ـ آخر صفوف الحرب .

لخرج وجهه القرشى ، وكسرت رباعيته اليمنى - قال الزبير : فيما ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير . إذ مالت الرماة إلى العسكر ، حتى كشفنا القوم وخلوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : « ألا إن محمداً قد قتل » ، فانكفأنا ، وانكفأ علينا القوم .. ووقع ذلك فى نفوس كثير من المسلمين : فانهزموا ، وكسرت قلوبهم ، ومر أنس ابن النضر بقوم من المسلمين فيهم عمر وطلحة . فقال : ما تنتظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا ثم توا على ما مات عليه : ثم استقبل الناس ، ولقى سعد بن معاذ ، فقال : ياسعد ، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد . فقاتل وقتل ووجد به سبعون ضربة ! !

• وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك ، فصاح بأعلى صوته ، يامعشر المسلمين . أبشروا هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأشار إليه بيده أن اسكت ! !

• وأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبى بن خلف » وهو مقنع بالحديد ، على جواد له يقال له « العود » كان يعلفه بمكة ويقول : « أقتل عليه محمداً » ، وكان قد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبره ، فقال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » ، فلما اقترب منه استقبله مصعب بن عمير . فقتل مصعباً . وجعل يقول : أين هذا الذى يزعم انه نبى ؟ فليبرز لى فإنه إن كان نبياً قتلنى ! !

فتناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجاءت فى ترقوته - فرجة بين سابغة الدرع والبيضة - فسكر الخبيث

مهزوماً. فقال له المشركون: والله ما بك من بأس! فقال: والله لو كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون! ثم مات في طريق عودته برابغ!!

ولم يقتل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في حياته أحداً سواه!! ولعله لو كان وجد مندوحة عن قتله لما قتله!!

● ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله: إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك. فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني[1] ثم قال: اعل هبل[2]!! فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ألا تجيبونه»؟ فقالوا: فما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال: «ألا تجيبونه؟» قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم» ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. فأجابه عمر: «لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار»... وانصرف الفريقان.

تعقيب :

● والحق أن المسلمين لم ينهزموا في هذه المعركة، وإن كانوا لم يحققوا النصر الحاسم الذي كانوا ينشدونه، ويكفي أنهم خرجوا من «الغزوة» بمجموعة من الدروس الحافلة، ويروى ابن القيم في زاد المعاد عن ابن عباس

---

(١) قامت هند وصواحبها بالتمثيل بقتلى المسلمين، ومن ذلك أن هنداً بقرت بطن حمزة رضي الله عنه! وأخرجت كبده فلاكتها، ولكنها لم تستطع بلعها!!

(٢) هبل: صنم كان لقريش في الكعبة.

قوله[١] : « ما نصر رسول الله في موطن نصره يوم أحد » فأنكر عليه ذلك ـ فقال : بيني وبين من أنكر كتاب الله ، إن الله يقول : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) .

وقد ذكر الله الحكمة فيما جرى يوم أحد كما يلي :

أولا : تمحيص أوليائه من ذنوبهم وعيوبهم ، ومحق أعدائه بكفرهم وعتوهم .

(٣ : ١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) .

ثانيا : تساوي المؤمنين والكافرين في القرح والألم وتباينهم في الرجاء والثواب .

(٣ : ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) (٤ : ١٠٤ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) .

ثالثا : تداول أيام هذه الحياة بين الناس : مؤمنين وكافرين ، بخلاف الآخرة ، فإن عزها ورجاءها ونصرها خالص للمؤمنين .

رابعاً : تمييز المؤمنين من المنافقين ، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة ، بعد أن كانوا معلومين في الغيب ، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ؛ وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس

(٣ : ١٦٦ ـ ١٦٧ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ..) .

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن ذكوان — وراجع زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم جـ ٢ ص ٢٣٨ .

خامساً : اتخاذه شهداء من المؤمنين : فإنه – سبحانه – يحب الشهداء من عباده ، وقد أعد لهم من المنازل أعلاها وأفضلها وأكرمها : (٣ : ١٤٠ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) .

سادساً : تعريف المؤمنين أن الجنة لا تنال إلا بالجهاد : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .

سابعاً : تحبيبهم في الموت في سبيله : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) قال ابن عباس : « لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة : رغبوا في الشهادة : فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون بإخوانهم ، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم » .

ثامناً : التعريف بالمصائب وأنها من النفس : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم) ومثله ما جاء في السور المكية كقوله : (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) .

تاسعاً : تعزية الله أنبياءه وأولياءه في قتلاهم أحسن تعزية وألطفها : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

عاشراً : تسلية المؤمنين ، وتعريفهم بالنصر الأكبر ، والفوز العظيم ، وهو إرسال الرسول لهم ، وإنزال الكتاب عليهم ، وهدايتهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣ : ١٦٤ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من

أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

● تلك بعض المعاني البارزة في غزوة أحد . وما أكثر المعاني والحكم والدروس التي أبرزتها هذه الغزوة . مما لو أحسن المسلمون فهمه واستيعابه واتباعه لكان لهم اليوم شأن أي شأن . ومكان أي مكان .

المنافقون في غزوة أحد :

● كانت « غزوة أحد » أولى الغزوات التي كشفت عن المنافقين . وفضحت كثيراً من مكائدهم ونواياهم . وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم . أن من حكمته في هذه الغزوة تمييز بين الطيب والخبيث : (٣ : ١٧٩ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . وما كان الله ليطلعكم على الغيب . ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)

● ولقد كان المنافقون مختلطين بالمؤمنين اختلاطاً شديداً في شتى القبائل . فاقتضت حكمة الله وسنته أن يرشد المسلمين إلى الأسلوب الذي يتعرفون به على المنافقين . وهو دراسة أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم . لا الاطلاع على الغيب ! ! . وقراءة مخبوءات النفوس . ومكنونات الصدور . ولهذا كان يوم أحد يوم تمحيص واختبار وبلاء ، يوم فيصل وتفرقة بين حزب الله وحزب الشيطان !!

● لقد كان المنافقون قبل « يوم أحد » يظهرون فرادى . أما في يوم أحد فقد ظهروا في شكل جماعي قوامه ثلاثمائة !! انحازوا إلى عبد الله بن أبي وتخلفوا معه عن القتال ! !

● وقد اتخذ « عبد الله بن أبي بن سلول » من استشارة النبي صلى الله

عليه وسلم له موضعاً لإثارة النفوس ، وإشاعة التخاذل ، وراح يقول :
« عصانى ، وأطاع الولدان !! »

* وقد عزّ على الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام — والد جابر رضى الله عنهما — أن يرجع هذا الحشد الضخم ، وأن يتخلفوا عن المعركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : « ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم .. قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » ! !

ويجيب عبد الله بن أبى باسم هؤلاء الخارجين : « ما نرى أن يكون قتال ، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم »

ولما يئس منهم الصحابى الجليل صاح فيهم : « أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله نبيه عنكم » ونزل فى ذلك قوله تعالى : (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)

● ولقد كان لتراجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش أثره فى بعض القلوب . فوجدنا كيف أن طائفتين من الأنصار ، وهم بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج لما رأوا انعزال المنافقين هموا بالانصراف ، ولكن الله سلمهم وعصمهم . وأنزل فيهم : (٣ : ١٢٢ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

● وتدل آيات سورة آل عمران على أن جيش المسلمين — بعد انصراف عبد الله بن أبى بمن معه — ظل فيه بعض المنافقين ؛ نجد ذلك صريحاً فيما نزل من الآيات على إثر ما منى به المسلمون لما خالفوا الوصاة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، وتركوا مواقعهم وانكشف الجيش ؛ فانتهز المنافقون هذه الفرصة وقاموا بحركة

الخوف شيئاً بعد قتل كثير من المسلمين . فقد عادت صفوف المسلمين إلى نظامها أنزل الله النعاس على المسلمين أمنة منه ونعمة حتى نام أكثرهم ولم يغش هذا النعاس المنافقين . وفي البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاس ونحن في مصافّنا يوم أحد ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه » وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه : « لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم فما منا من أحد إلا وذقنه في صدره ، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير المنافق يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا » فنزل في ذلك قوله تعالى :

(٣ : ١٥٤ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل : إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور)

وظن الجاهلية الذي ذكره ، فسره ابن القيم في زاد المعاد[1] بقوله : إنه هو الظن الذي لا يليق بالله ، كظنهم أنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، وأن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ، ولا حكمة له فيه ، وإنكارهم أن يتم الله أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون بربهم سبحانه وتعالى ، وعذبهم به ، كما قال في سورة الفتح : (٤٨ : ٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم

---

(١) ج ٢ ص ٢٥٧ .

جهنم وساءت مصيرا) وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل لأنه خلاف كلمته التي سبقت لرسله : أنه ينصرهم ولا يخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون . من تفسير ابن القيم (لظن الجاهلية) بتصرف واختصار

● وقد انتهز المنافقون ما جرى في أُحد ، واعتبروه فرصة سانحة لإثارة موجة من الإرجاف والشماتة . ولعل أشد ما وصل إليه الإرجاف ما أشيع من مقتل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أشاع ذلك مشرك خبيث من قريش يدعى « ابن قمئة » فهب بعض المنافقين يقول « لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول » وقال جماعة منهم : « خذوا لنا أماناً من أبي سفيان !! »

ونزل قول الله تعالى : (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

والمعنى : أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لا يزعزعه موت الرسول أو قتله ، ولا يغير مما كان عليه ، لأنه يعبد ربه لا الرسول ، كأصحاب الأنبياء السابقين . وكما قال أنس بن النضر : « ياقوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد حي لا يموت ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه » ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني المسلمين – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني المشركين – ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل[١]

وروى ابن إسحاق أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه ، فقال له : يافلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله

---

(١) رواه البخارى من حديث أنس بن مالك .

عليه وسلم قد قتل : فقال للأنصارى : إن كان محمد قد قتل ، فقد بلغ : فقاتلوا عن دينكم !

وقال الإمام ابن القيم فى زاد المعاد[1] : «ومنها — أى : من الغايات المحمودة فى غزوة أحد — أنها كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويقتلوا : فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حى لا يموت ، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد لا هو ولا هم : بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد »

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن أبا بكر الصديق تلا هذه الآية يوم موت النبى صلى الله عليه وسلم — ثم قال : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

● ومن أراجيف المنافقين التى تحدثت عنها سورة آل عمران قولهم : « لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل » يقول الله تعالى : (٣ : ١٥٥ — ١٥٨ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا : لإخوانهم ، إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى ، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون)

---

(١) حـ ٢ ص ٢٥٣ .

وكلمة (لو) حجة يتستر وراءها المنافقون ويتعللون بها : لأنهم شياطين و (لو) تفتح عمل الشيطان ـ فهم يقولون :

(لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا)

ويقولون لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى : (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا)

ويقولون لأشياعهم : (لو أطاعونا ما قتلوا)

[illegible] : ([illegible] مرصاداً)

في سورة النساء

(١) نفاق التشريع :

(الآيات : ٦٠ ـ ٦٥ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا ، وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) .

* * *

● يذكر المفسرون « أسبابا » متعددة « لنزول » هذه الآيات ، وجميع ما ذكروه يدور حول : أن « أفرادا » من المنافقين : كالجلاس بن الصامت ، ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد ، أعرضوا عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآثروا تحكيم غيره من الناس ؛ لعلمهم أن الآخرين يقبلون الرشوة ، ويبيعون « الأحكام » بالثمن !! . أما هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان ـ دائما ـ يحكم بالعدل ، ويقسم بالسوية : لا يحوله عن الحق قرابة قريب ، ولا محبة حبيب ، ولا عظمة عظيم !! فالناس ـ جميعا ـ أمام شريعة الله ودينه سواء ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى !!

● وليس معنى تعدد أسباب النزول : وهم الرواة ، أو تناقض النصوص : إنما معناه أن الوقائع كانت تتعدد قبل نزول الآية : وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ـ الآية أو الآيات ـ على أصحاب كل واقعة فيرون أنها سبب نزولها .

والآيات التي بين أيدينا نزلت لتقرر « شرط الإيمان » على النحو التالي :

ـ أن المؤمنين ـ لكي يكونوا مؤمنين حقاً ، ناجحين صدقاً ـ لابد أن يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

ـ وأن المؤمنين ـ لكي يكونوا مؤمنين حقاً ، ناجحين صدقاً ـ لابد أن يتلقوا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالرضا القلبي ، والتسليم الظاهري !!

ـ وأن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ ولو مجرد إرادة !! لن يقبل الله منهم مزاعم الإيمان ، ولا دعوى الإسلام !!

● والطاغوت ـ الذي ذم الله المنافقين بأنهم يريدون التحاكم إليه ـ هو مصدر الطغيان كله ، فكأن كل من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : يكون عبد الطاغوت من دون الله !! وكذلك الذي ينصب نفسه مشرعاً للناس ، وحاكماً لهم بغير ما أنزل الله ، يكون قد نصب نفسه « طاغوتاً » ووثناً !!

وقد أمرنا الله في كثير من آيات الذكر الحكيم : أن نؤمن بالله ، ونكفر بالطاغوت[1] ، يقول الله تعالى : (٢ : ٢٥٦ ، ٢٥٧ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ، الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات

---

(١) ورد لفظ الطاغوت في القرآن الكريم ثماني مرات !

إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

وأنماط « الطواغيت » التى يدين لها الناس ، ويعبدونها من دون الله : كثيرة ومتباينة ! وتكاد تكون منحصرة فى كل مايصرف عن الله ، وتوحيده ، وآياته ، وصفاته ، وتشريعه

• وتبدأ الآيات بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما نزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به)

وتأمل كلمة (يزعمون) إنها المطية الذلول التى يمتطيها الكذابون إلى مآربهم وأغراضهم ، يقول الراغب : الزعم : حكاية قول يكون مظنة الكذب : ولهذا جاء القرآن الكريم بذمه وذم القائلين به فى مواضع شتى[1] : كقوله تعالى : (٦٤ : ٧ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل : بلى وربى لتبعثن) (٦ : ٩٤ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) (١٧ : ٥٦ قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) (١٨ : ٤٨ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً)

فالقرآن الكريم يدفع ادعاء المنافقين للإيمان بما نزل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما أنزل من قبله : بأنه مجرد زعم ، لا حقيقة له ولا وجود ! .

---

(١) تكرر هذا اللفظ فى القرآن الكريم خمس عشرة مرة !

• إنهم اتبعوا الشيطان فابتدع لهم كل زيف وباطل وهجروا « كتاب الله » وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هجراً غير جميل ، واستبدلوا بهما كتباً أخرى : كالحة الوجه ، سيئة الغرض ، هزيلة المعنى ، تافهة المبنى ، رديئة الفكرة ، متناقضة الرأى ! !

• لقد شرد المنافقون عن الطريق ، وضلوا عن سواء السبيل ، وعميت عليهم الأنباء ، فما عادوا يستجيبون لحق ، ولا يهتدون لهدى ، ولا يتعاونون على خير ، ولا يأتمرون بمعروف !

صموا آذانهم عن نداء السماء ، وصدوا قلوبهم عن دعوة الله (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً)

• حتى إذا أحاطت بهم خطاياهم ، وجرفهم طوفان العصيان ، وأدركهم الغرق : هرعوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومعهم رصيدهم الذى لا ينفد من الأيمان الكاذبة (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً)

وتأمل كلمتى (إحساناً) و (توفيقاً) إنهم يحلفون – كاذبين غاشين – أنهم ما قصدوا بالتحاكم إلى الطاغوت ، والنكوص إلى فوضى « الجاهلية التشريعية » : إلا رغبة فى « الإحسان » و « التوفيق » ! ! !

ألا ترى معى أن لغة المنافقين « القدامى » هى هى لغة المنافقين « المحدثين » ؟ ؟

إنها – دائماً – لغة أعداء الله ، وأعداء شريعته ! ! وإنه الدفع المتجدد الذى يطلقونه كل يوم : ليبرروا به سلوكهم المرذول

إنهم يقولون إننا « نستورد » الشرائع ، و « نقتبس » القوانين : لكى نتقى الشبهات والإشكالات والمتاعب التى تسببها لنا « شريعة القرآن » و « سنة النبى العربى » ! !

ويقولون : إننا نريد « التوفيق » بين العناصر المختلفة ، والاتجاهات المختلفة ، والعقائد المختلفة

ولو أنني رحت أختصر ما يقوله « المنافقون المحدثون » عن « التشريع الإسلامي » لما وجدت أكمل ولا أشمل ، ولا أدق ولا أعمق ، من قوله تعالى : (يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) .

● ثم تقول الآيات البينات : (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) وهكذا تمسك الآية بخناقهم وهم في حالة تلبس بالتناقض والتربص والخداع والتمويه !!

و.. ثم يعلم الله نبيه كيف يواجه هذا النفاق التشريعي ! :

● فأعرض عنهم ! ! .. أوليس هو صلى الله عليه وسلم مأموراً بالإعراض عن الجاهلين ؟

● وعظهم ! ! .. لعل قلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق !!

● وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً .. ! تغزو به أفكارهم السوداء وحججهم الواهية ! !

* * *

● وتحدد الآية (٦٤) مهمة الرسول ، فتقول : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

فالرسول ليس مجرد « خطيب » يلقي خطبة عصماء ثم يمضي .. ولا يهمه — بعد ذلك — أن تذهب كلامه في الهواء ، أو أن يستقر في القلوب ! !

والرسول ليس مجرد « موفد » من قبل الله للإثارة الوجدانية ، وتنظيم الشعائر التعبدية ! !

إنما أرسل الله الرسول ليطاع — بإذنه ، وفي حدود شرعه — لتحقيق منهج الدين ! !

ومنهج الدين، هو منهج الحياة بكل ما فيها من واقعية ومثالية، ومن تشكيلات وتنظيمات، وأوضاع وقيم، وأخلاق وآداب، وشعائر ومشاعر !!

إن مهمة الرسل ـ باختصار شديد مفيد ـ هي: « إقامة منهج معيَّن للحياة، يتغلغل في واقع الحياة، بأمر الله واهب الحياة » !

• والذين أساءوا فهم هذه الحقيقة ـ عن قصد، أو عن غير قصد ـ عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، وأن يتوبوا إلى ربهم، ويستغفروه، وأن يصححوا مفاهيمهم الخاطئة، وأن يقوّموا سلوكهم المعوج !

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك، فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا).

إن المنافقين ـ هجروا حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علوا وعتوا، وغروا ونفروا.. ولذلك كان من كمال استغفارهم أن يجيئوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ متواضعين، معترفين بقصورهم وتقصيرهم، محكّمين له صلى الله عليه وسلم، طالبين منه أن يمد يد الضراعة إلى ربه تعالى أن يتوب عليهم ـ ويغفر لهم !!

ولكن: ترى هل استجاب المنافقون؟

لا.. لقد جرفهم التكبر الآبق في تياره، وابتلعهم الغرور الخانق إلى قراره. (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون).

فماذا كان حالهم، وكيف كان مآلهم؟

كان كما يقول الله لنبيه: (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم).

* * *

● ويقسم الله تعالى لنبيه أن الإيمان لا يكون صحيحاً متقبلا لديه إلا إذا استجمع ثلاثة شروط :

● أن يحكِّم المؤمنون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في القضايا التي يختلفون حولها .

● (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً) مما قضى به صلى الله عليه وسلم .

والحرج : الضيق ، والقضاء : الحكم .

ومعنى هذا أن يذعنوا إذعاناً قلبياً لما قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم !

● (ويسلموا تسليما) أي : يذعنون إذعانا ظاهريا عمليا ؛ فكأن الآية تطالب المؤمنين بأن « يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأن تتقبلوا حكمه ظاهرياً وباطنياً

وتأمل كيف صدرت الآية بالقسم (فلا وربك لا يؤمنون) .

وتأمل كيف كان القسم بهذا اللفظ (ربك) تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم .

وتأمل كيف جاء القسم بين نفيين (لا) وربك (لا) يؤمنون .

* * *

هذا ما قاله الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمنافقين الأقدمين . .

وهو ـ أيضا ـ ما يقوله سبحانه وتعالى للمنافقين المحدثين . .

(ب) الهاربون من العدالة :

(٤ : ١٠٥ ـ ١١٥ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا .

ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما .

ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيما .

ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا .

ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما .

لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما . ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

* * *

● إنني أهدي هذه « الوثيقة » إلى العالم كله .. بكل نظمه .. ومذاهبه .. ومبادئه .. وأفكاره .. وتراثه .. وأمجاده .. وأممه .. وشعوبه !!

إنها « واقعة » واحدة من وقائع « القرآن الكريم » !!

وإنها « حادثة » واحدة من حوادث « السيرة العطرة » !!

والحادث الذى تدور حوله هذه الآيات ليس حادثاً عابراً : إنه «حادث» يحسن الوقوف عنده ، ودراسته ، وتأمله !

وهو «أمارة» على أن القرآن كتاب الله وتشريعه . . ! وأنه فوق ماتعارف عليه البشر من نظم وشرائع وقوانين ! !

إنه كتاب «رفع» أتباعه إلى القمة ، و«دفعهم» إلى الأمام !

وتعاليم هذا الكتاب : تأخذ «بيد» الإنسان و«تصعد» به إلى الحرية . والكرامة . والرخاء . . والسلام . . !

إنه كتاب « العدالة » و « المساواة » و « الحب » .

إنه الكتاب الذى أقر «حقوق الإنسان» . . قولا وفعلا ! وحرره من الأنانية . . والكهنوت . . والاستعباد . . ؟

و «عدالة القرآن» عدالة تسمو عن الغرض والمرض والهوى ! !

هذا ما يقرره «النص» الذى بين أيدينا . . أو إن شئت فقل : «الوثيقة» التى نصر على إهدائها للعالم كله «بأممه المتحدة» وغير المتحدة ! !

و « النص القرآنى » يجند نفسه للدفاع عن . . يهودى !!

و «اليهودى» معروف بموقفه المكنود الحسود الجبان . . من القرآن . ومن رسول القرآن ؟؟

ومع هذا كله . . وبرغم هذا كله . . فإن القرآن يعلن موقفه الصريح إلى جوار الحق . . ولو كان ذلك الحق . . فى يد يهودى ؟؟

كذلك فإن القرآن يصر على مواجهة «الباطل» . . مهما تستر فى ظلاله . . أو لجأ إليه ؟؟

وإليك «القصة» كما رواها «نقلة» المتن و«أئمة السنة» و«رواة» السيرة :

● روى أبو عيسى الترمذي في (جامعه) في كتاب التفسير، عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه، قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق: بشر، وبشير، ومبشر. وكان بشير رجلا منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا، أو قال فلان كذا. فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث. فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة

غضبوا، وقالوا: ابن الأبيرق قالها!

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام.

وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة: التمر والشعير. وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك[١] ابتاع الرجل منها فخص به نفسه: فأما العيال، فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله في مشربة له[٢] وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يصلحهما.

فعُدِيَ عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح.

فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي! تعلم أنه قد عدي علينا في

---

(١) الضافطة: كانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما، ثم قالوا للذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن، وللمكاري الذي يكري الأحمال: ضافط والضفاط.

والدرمك: الدقيق النقي الحواري.

(٢) المشربة (بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها) هي الغرفة أو العلية، أو الصفة بين يدي الغرفة، والمشارب: العلالي.

ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا ، فذهب بسلاحنا وطعامنا .

قال : فتحسسنا في الدار[1] وسألنا . فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى . فيما نراه ، إلا على بعض طعامكم .

قال : وقد كان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار : والله ، ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجلا منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه (سله من غمده) ثم أتى بني أبيرق فقال : والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتُبَيِّنُنَّ السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل : فوالله ما أنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها !!

فقال عمي : يا ابن أخي ! لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقلت : يارسول الله . إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه . فليردوا علينا سلاحنا . وأما الطعام فلا حاجة لنا فيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظر في ذلك .

فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه في ذلك . واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يارسول الله ! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا . أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة في غير بينة ولا ثبت[2] .

---

(١) الدار هنا : القبيلة أي نزلها القبيلة ، أو الحي منهم . ويعني بها القبيلة أو البطن كما جاء في الحديث : « ألا أنبئكم بخير دور الأنصار ! دور بني النجار » ثم « دور بني عبد الأشهل ، وفي كل دور الأنصار خير » يعني : القبيلة المجتمعة في محلة سكنها .

(٢) الثبت — بفتحتين — الحجة والبينة والبرهان .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته . فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت! قال : فرجعت . ولوددت أنى خرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

فأتيت عمى رفاعة ، فقال : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) يعنى : بنى أبيرق (واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أى : بنى أبيرق (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما . يستخفون من الناس) إلى قوله : (ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) أى : إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) قولهم للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) يعنى : أسيراً وأصحابه (وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) إلى قوله (فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .

فلما نزل القرآن : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح فرده إلى رفاعة .

قال قتادة : فلما أتيت عمى بالسلاح ، وكان شيخاً قد عسا[1] فى الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولا[2] . فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخى هو

---

(١) عسا فى الجاهلية — أى : كبر وأسن
(٢) مدخولا — أى : مغشوشا .

في سبيل الله ، قال : فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين . فنزل على سلافة ابنة سعد بن شهيد فأنزل الله فيه : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) إلى قوله : (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) .

فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره ، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت فرمت به في الأبطح[1] ثم قالت : أهديت إليّ شعر حسان ، ما كنت تأتيني بخير ! !

● وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال : عدا بشير بن الحارث على علية رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان فنقبها من ظهرها وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما . فأتى قتادة النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فدعا بشيراً فسأله فأنكر ، ورمى بذلك لبيد بن سهل رجلا من أهل الدار ذا حسب ونسب ، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد .

● وروى ابن جرير عن قتادة « إن هؤلاء الآيات أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق وفيما همّ به نبي الله صلى الله عليه وسلم من عذره وبين الله شأن طعمة بن أبيرق ، ووعظ نبيه وحذّره أن يكون للخائنين خصيما . وكان طعمة بن أبيرق رجلا من الأنصار ثم أحد بني ظفر : سرق درعاً لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودي كان يغشاهم يقال له : زيد بن السمين فجاء اليهودي إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم ، وكان نبي الله عليه السلام قد همّ

(١) الأبطح : هو أبطح مكة أو بطحاؤها ، وهو : مسيل واديها .

بعذره حتى أنزل الله في شأنه ما أنزل فقال : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الخ . وكان طعمة قذف بها بريئاً فلما بيّن الله شأن طعمة نافق ، ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه (ومن يشاقق الرسول ... الآية) .

● وروى عن ابن زيد أن رجلا سرق درعا من حديد وطرحها على يهودي فقال اليهودي : والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طرحت عليّ وكان الرجل الذي سرق جيران يبرئونه ويطرحونه على اليهودي ، ويقولون : يارسول الله ، هذا اليهودي الخبيث يكفر بالله وبما جئت به !! قال : حتى مال النبي صلى الله عليه وسلم ببعض القول فعاتبه الله عز وجل في ذلك فقال : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) الآيات . ثم قال في الرجل . ويقال : هو طعمة بن أبيرق .

● وروى عن السدى أنها نزلت في طعمة بن أبيرق ، استودعه رجل من اليهود درعاً فخانه فيها وأخفاها في دار أبي سليك الأنصاري ، وأعان طعمة وأناس من قومه اليهودي لما جاء يطالب درعه ، وجادلت الأنصار عن طعمة ، وطلبوا من النبي أن يجادل عنه ... الخ .

● يقول رشيد رضا[1] : « وقد اختار أكثر المفسرين أن الخائن هو طعمة ، وأن اليهودي هو الذي كان صاحب الحق » .

* * *

تعليقات :

الأول : يدل قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) على أن القرآن الكريم كتاب دنيا ودين ، كتاب حكم وعبادة ،

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٩٢ .

كتب أخلاق ومعاملات . . وأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل ليبشر وينذر ويهدى ويحكم .

الثاني : ويدل قوله تعالى : (بما أراك الله) على أن الرسول لا يحكم بهواه . ولكن بما علمه الله وأراه . وإنما أطلق الله تعالى على (التعليم) (رؤية) لأن العلم اليقيني مبرأ عن الريب يكون جاريا مجرى الرؤية في القوة والظهور .

الثالث : ليس لأحد — غير الرسول صلى الله عليه وسلم — أن يقول : حكمت بما أراني الله ! ! فقد روى ابن عبد البر والبيهقي في (المدخل) عن عمر رضي الله عنه قال : لا يقولن أحدكم قضيت بما أراني الله : فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم . ولكن ليجتهد رأيه : لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيبا : لأن الله كان يريه إياه ، وهو منا الظن والتكلف ! !

الرابع : قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ولا تكن للخائنين خصيما) (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) وقوله للذين جادلوا عن طعمة ابن أبيرق : (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) فيه توجيه (للمحامين) الذين يتصدون للدفاع عن المتهمين ! ! إن عليهم أن يتأكدوا من « براءة » من يدافعون عنه . . . حتى لا يكون دفاعهم سببا في إدانة برىء . وبراءة مسىء ! !

الخامس : وترشدنا الآيات إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر . وأنه لا يعلم الغيب إلا في حدود تعليم الله له . ثبت في الصحيحين عن أم سلمة رضي الله

عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحملها، أو ليذرها».

ورواه الإمام أحمد عنها – أيضاً – بلفظ: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مواريث بينهما درست ليس بينهما بينة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطاماً(١) في عنقه يوم القيامة. فبكى الرجلان، وقال كل منهما: حقي لأخي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إذ قلتما، فاذهبا، فاقتسما، ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه».

السادس: دعا الله سبحانه وتعالى طعمة بن أبيرق إلى التوبة والاستغفار، ولكنه أبى، إذ يقول الله تعالى: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً).

فكانت عاقبة أمره خسراً، إذ يقول الله تعالى: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً).

وهكذا كل من آثر الإصرار، ورفض الاستغفار.

السابع: قررت الآيات «قواعد الجزاء في الإسلام» على هذا النحو:

---

(١) الإسطام: الحديدة التي تحرك بها النار وتسعر.

● فتح باب التوبة لكل عاص أو ظالم : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

● إلزام كل إنسان بنتائج عمله : (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

● تضاعف التبعة على من يرتكب إثماً ثم يرمى به بريئاً : (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) .

* * *

وبعد : فإننى أضع هذه « الوثيقة القرآنية » بين يدى العالم « الظمآن » إلى المعرفة والخير والرشد .. التائه فى خضم الهوى والعصبيات ..

إننى أقول للعالم كله « بأممه المتحدة » وغير المتحدة ..

(٦٩ : ١٩ هاؤم اقرءوا كتابيه) .

(حـ) الباحثون عن « العزة » :

(٤ : ١٣٨ – ١٤٧ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعاً ، وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ؛ إنكم إذاً مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى : يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ؛ مذبذبين بين ذلك : لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ؟

إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ؛ إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله : فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم – إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليماً) .

* * *

● النفاق « رخاوة » في الطبع ، و« قساوة » في القلب ، و« انحراف » في الفطرة ، و« احتراف » في المبدأ ، و« إسراف » في الخطيئة !!

و« المنافق » لا ينطوي على « تحديد » موقفه إزاء الحق والباطل .. فهو

– دائماً – « مذبذب » بين الصفين .. حائر بين الهدفين ! .. لا إلى هؤلاء .. ولا إلى هؤلاء !!

وهو منخذل .. « مسلوب الإرادة » أمام شبح « المخوف » .. وإزاء « المطامع » فهو دائم الرهبة والرغبة .. والهرب والتحفز .. والإدبار والإقبال .. والأنين والحنين !!

إن « مخاوفه » و « أطماعه » لا تكاد تنتهي ..

ومصادر هذه « المخاوف » و « الأطماع » لا تكاد تحصى !!

إنه « يخاف » كل الناس .. وكل الأشياء !!

و « يطمع » في كل الناس .. وفي كل الأشياء !!

وهذا سر شقائه وبلائه ، وكنوده وجحوده !!

● وتأخذ هذه الآيات بأيدينا ... فتضعنا على الغرائز الكامنة في قرارة نفس المنافق .. فإذا بها أشياء تلمس وتحس .. وتُرى وتُحس !!

وترينا الآيات – فيما ترينا – .. كيف أن المنافق تابع لكل ناعق ، يبحث عن أي نفع ، راغب في أي كسب ، خائف من أي شيء !!

فهو يبحث عن العزة ... ويهزأ بالحق .. ويتربص بالمؤمنين .. ويخادع الله .. !

وهو .. إن صلى صلى رياء .. وإن ذكر الله ذكره قليلا .. وإن عبد الله فعبادته بلا روح !

وهو ... متأرجح المشاعر ، حائر النظرات ، عاثر الخطوات ، « مذبذب » الوجدان !!

● وتبدأ الآيات في عرض هذه الملامح النفسية « القلقة » ، بقوله تعالى :

(بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً) .. وكلمة «بشر» — في حد ذاتها — عذاب أليم عظيم مقيم: إنها تهكم ساخر تنقطع له نياط القلب !! إنها كلمة تحمل اليأس كله .. والخزي كله .. والهم كله .. وتصور إذا كان الأمر الذي «تزف» إليهم به البشائر هو العذاب الأليم .. فما هو الأمر الذي يستعيذون به !! وماذا وراء العذاب الأليم من عذاب ؟! ..

• (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وتتخذ هذه «الولاء» أشكالاً شتى، وصوراً متباينة: فهو ولاء فكري، وديني، وعاطفي، وحضاري، وسياسي !! وما أكثر «الولاءات» التي يبذلها المنافقون للكافرين ..

• وتتساءل الآيات: (أيبتغون عندهم العزة) والمنصب والجاه؟

وتقرر الآيات: (فإن العزة لله جميعاً). ألا يقرأ ويفهم ويعي .. أولئك الذين أقاموا «عروشهم» على الجماجم والأشلاء !! لا يسمع .. أولئك الباحثون عن «العزة» و«السعادة» و«المعالي» و«الجلالة» .. أن القوة لله جميعاً .. وأن العزة لله جميعاً ؟

ألا ليتهم يعقلون .. ولكن لهم قلوب لا يفقهون بها !

ألا ليتهم يسمعون .. ولكن لهم آذان لا يسمعون بها !

ألا ليتهم يبصرون .. ولكن لهم عيون لا يبصرون بها !!

ألا ليتني .. أستطيع أن أحول هذه الكلمات إلى «سياط» تلهب ظهور المتآمرين والخائنين !!

ألا ليتني أستطيع أن أحيل هذه الحروف إلى «قذائف موجهة» تعصف بهم، وتقصف أوكارهم !!

• ومن «الباحثين عن العزة» أولئك المتفاخرون بمجد جاهلي .. وبنعرات جاهلية .. أولئك الذين يقيمون «الفرعونية» في وجه «الإسلامية»!

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ريحانة أن النبي صلى الله عليه وسلم – قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً، فهو عاشرهم في النار»!

• (وقد نزل عليكم في الكتاب) – والمنزل في الكتاب هو قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره).

• (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) إن البدء الحقيقي للنفاق يكون «بالإغضاء» عن الهازلين بآيات الله ودينه .. المحتجين «بحرية الرأي» ونبذ «التعصب الأعمى»! ومن العجيب: أن شعار «حرية الرأي» لا يرفع إلا في وجه «المتحدث الإسلامي» فقط!؟ أما المتحدثون من كل «ملة» و«نحلة» فهم لا يخضعون لهذا الشعار ولا يلتزمون به؟!

إن «الإغضاء» عن الهازلين .. هو «الخطوة الأولى» في سبيل النفاق .. وبعدها «تتهدم» العقيدة ثم «تخمد» ثم «تمرض» القلب، ثم «تموت» موتاً أبداً؟!

إن على «المؤمن الصادق» أن يتبع مع المستهزئين أحد أسلوبين لا ثالث لهما: • فإما أن يدافع عن دينه بيده أو بلسانه • وإما أن يهجر مجالس الكفر والهجر؟!

أما إذا استخذى عن اتباع أحد الأسلوبين، فإن الآية تقول له ولأمثاله – بوضوح:

(إنكم إذاً مثلهم) . .

ونقول : — له ولأمثاله — (إن الله جامع المنفقين والكافرين فى جهنم جميعاً) !! فكم جمعهم «ناد» واحد .. تجمعهم «نار» واحدة !!

● (الذين يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم . وإن كان للكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة) وهم بهذا التصرف يحاولون أن يمسكوا «بالعصا من الوسط» !! فهم يبدون (وجهين) . ويعيشون (بطريقتين) !! ويتعاملون (بأسلوبين) !! ولكن : هل يقدرون على خداع المؤمنين (بأثوابهم التنكرية) و (أشيائهم المستعارة) و (انفعالاتهم المزورة) :

الجواب : لا .. ولا .. ولا .. ثلاث مرات !!

● (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولا تحويلا !!

● وتأمل تعبير الآية عن انتصار المؤمنين (بالفتح) وتعبيره عن انتصار الكافرين (بالنصيب) .

لتعلم أن العاقبة للتقوى . وأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا !! وإذا رأيت انتصار الكافرين على المؤمنين ، فما ذلك إلا لأن المؤمنين تخلوا عن إيمانهم وقرآنهم !!

● (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ومهما لبسوا من أثواب الرياء فسيظلون عرايا مفضوحين !!

ثوب الرياء يشف عما تحته . فإذا اكتسيت به فإنك عار !!

● (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون

الله إلا قليلا) قال ابن كثير : هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها - وهى الصلاة . إذا قاموا إليها : قاموا : وهم كسالى عنها : لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية . ولا يعقلون معناها . كما روى ابن مردويه عن عطية عن ابن عباس ، قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه . عظيم الرغبة ، شديد الفرح . فإنه يناجى الله . وأن الله تجاهه . يغفر له ، ويجيبه إذا دعاه .

● لقد وصفت الآية « ظواهر » المنافقين فى الصلاة فقالت : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) .

ووصفت « بواطنهم » فيها ، فقالت : (يراءون الناس) ! !

● كانت هذه هى صفات المنافقين القدامى عند الصلاة . . أما المنافقون المحدثون . . فإنهم ماعادوا يقومون إلى الصلاة ! ! وما عادوا يراءون أحداً : لأنهم ماعادوا يخافون أحداً ! !

● ثم تقول الآيات - فى وصف المنافقين - : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء . . ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ! !

وكلمة (مذبذبين) كلمة لها رنين خاص . . إنها تدل على الحيرة والتردد والاضطراب . يقول ابن جنى : المذبذب : المهتز القلق الذى لا يثبت ولا يتمهل ! !

* * *

● تقرر الآيات مصير المنافقين ، وهو مصير بشع . تنخلع لهوله القلوب (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) لقد عاشوا فى الدرك الأسفل من العقيدة والخلق والسلوك ! ! فكان جزاؤهم « الدرك الأسفل من النار » جزاء وفاقاً ! !

• ولكن .. ترى .. هل أغلق باب التوبة فى وجه هؤلاء ؟ !

لا .. فإن يد الله الرحمن الرحيم ، تمتد للتائبين ، وتتقبل استغفار المستغفرين وتقيل عثرات الساقطين !

تقول الآيات : (إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله) .

وانظر إلى الشروط الأربعة التى حددتها الآية :

١ — التوبة .

٢ — الإصلاح .

٣ — الاعتصام بالله .

٤ — إخلاص الدين له .

ولو قرأت الكثير من الآيات التى تحدثت عن التوبة : فإننا نجدها ـ غالباً ـ تشترط « التوبة » والإصلاح .. فقط ! !

أما ـ هنا ـ فالداء خطير ! ! وهو فى حاجة إلى علاج كثير ! !

إن المنافقين اعتصموا بغير الله وطلبوا من الناس العزة ! !

وإن المنافقين استهزءوا وسخروا بالمؤمنين : وما كانوا يرجون لله وقاراً ! !

ولهذا طالبتهم الآية بأن .. يعتصموا بالله ! !

وبأن .. يخلصوا دينهم لله ! !

ثم تعطى الآية التائبين أجراً عظيماً ، وجزاء كريماً إنهم ينقلهم من « الدرك الأسفل » إلى « الدرجات العلا » أو كما قال الله تعالى : (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً) .

(ما يفعل الله بعذابكم) أيشفى به غيظاً ؟ أيدرك به ثأراً ؟ أيستنفع به

نفعاً ؟! أيستدفع به ضرراً ؟.. كلا !! فهو الغنى وأنتم الفقراء.. وهو العزيز وأنتم الأذلاء !! وهو القوى وأنتم الضعفاء !!

• وتأمل قوله : (إن شكرتم وآمنتم) إنه - سبحانه - قدم الشكر على الإيمان ليدل على أن الإيمان لا يستقر ولا يستمر إلا إذا سبقته مشاعر المعرفة والحب لخالق الكون ومدبره !!

والشكر هو الإيمان.. ألا ترى القرآن قابل بينه وبين الكفر : (٣٩ : ٧ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم، ولا يرضى لعباده الكفر : وإن تشكروا يرضه لكم).

• وتأمل قوله تعالى : (وكان الله شاكراً عليما)

أرأيت كيف يشكر الخلاق الرزاق ؟!

أفلا يشكر المخلوق المرزوق ؟!

فى سورة التوبة

(٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . . قل : استهزئوا ، إن الله مخرج ما تحذرون)

آخر غزوة وآخر سورة :

● قالوا : إن لسورة التوبة عدة أسماء[1] ـ منها :

براءة : لقوله تعالى فى أولها : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) .

التوبة : لتكرر لفظ التوبة فيها : (٩ : ٣ فإن تبتم فهو خير لكم)(٩ : ٥ . ١١ فإن تابوا وأقاموا الصلاة) (٩ : ٢٧ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) (٩ : ٧٤ فإن يتوبوا يك خيراً لهم) (٩ : ١٠٢ عسى الله أن يتوب عليهم) (٩ : ١١٧ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) (٩ : ١٠٤ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) (٩ : ١١٢ التائبون العابدون . .)

الفاضحة : فقد أخرج البخارى عن سعيد بن جبير ، قال قلت لابن عباس : سورة التوبة ، قال : التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل : ومنهم . . ومنهم . . حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها .

سورة العذاب : رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

---

(١) الصحيح أن اسم السورة « التوبة » أو « براءة » أما ما عداهما فصفات لا أسماء .

المقشقشة: رواه أبو الشيخ عن ابن عمر. والقشقشة معناها: التبرئة. وهي مبرئة من النفاق.

المنقرة: أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير: لأنها نقرت عما في قلوب المنافقين، أي: بحثت عنه.

البحوث: ــ صيغة مبالغة من البحث ــ رواه الحاكم عن المقداد.

الحافرة: ذكره ابن الفرس: لأنها حفرت عن قلوب المنافقين: أي بحثت عنها.

المثيرة: رواه ابن أبي حاتم عن قتادة: لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم: أي: أخرجتها من الخفاء إلى الظهور.

ومما قاله رواة التفسير المأثور عن أسمائها:

المبعثرة؛ لأنها بعثرت أسرارهم، أي: أظهرتها(١).

المدمدمة؛ أي: المهلكة لهم.

المخزية؛ أي: الفاضحة لهم، الناشرة لمثالبهم.

المنكلة؛ أي: المعاقبة لهم.

المشردة؛ أي: الطاردة لهم، والمفرقة لجمعهم.

وبعد مراجعة آيات السورة مراجعة موضوعية، والوقوف على ما جاء في كتب التفسير المأثور عن أسباب النزول، ودراسة ما رواه كتاب السيرة النبوية وغزواته: تبين لنا أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة ولكنها لم تنزل دفعة واحدة.

---

(١) جاء في الروض الأنف للسهيلي جـ ٧ ص ٣٥٢: «وكانت براءة تسمى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده: المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس». ولعله قصد بالتسمية مطلق الصفة.

ومع أنني لا أملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة - في خلال العام التاسع - إلا أنه يمكنني الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام .

والمرحلة الثانية : كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ، ثم في أثنائها .

والمرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمة السورة - من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين - فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج[(١)] .

● ولما كان الجزء الأكبر من السورة - الذي يستغرق أكثر من

---

(١) قال ابن إسحاق : وحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف ، عن أبي جعفر محمد بن علي رضوان الله عليه ، أنه قال : لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبي بكر ؛ فقال : لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي ؛ ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ؛ فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ؛ وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ؛ أنه لا يدخل الجنة كافر ؛ ولا يحج بعد العام مشرك ؛ ولا يطوف بالبيت عريان ؛ ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته ؛ فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء ؛ حتى أدرك أبا بكر بالطريق ؛ فلما رآه أبو بكر بالطريق ، قال : أأمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا .

فأقام أبو بكر للناس الحج ؛ والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ؛ حتى إذا كان يوم النحر ؛ قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للامام المحدث عبد الرحمن السهيلي ج ٧ ص ٣٤١) .

نصفها : الحديث حول المنافقين . وفضح نواياهم وأعمالهم . ووصف أحوالهم النفسية والقلبية ، ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها - وكشف حقيقة حيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد ، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصفوف . وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل : آثرت أن أستعرض وقائع غزوة تبوك على ضوء آيات السورة البينات .

- وغزوة تبوك هي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- وسورة براءة هي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم(١) .

* * *

غزوة تبوك(٢) :

- كانت في شهر رجب سنة تسع . وكانت في زمن عسرة - في الظهر والزاد والماء(٣) وجدب من البلاد . وحين طابت الثمار . والناس يحبون المقام في ديارهم وظلالهم .

قال عمر رضي الله عنه - وقد سئل عن ساعة العسرة - : خرجنا في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد . حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش . وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر من فرثه فيشربه . ويجعل ما بقي على كبده !! فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيرا .

---

(١) روى البخاري عن البراء « أن آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) وآخر سورة نزلت (براءة) » .

(٢) تبوك مكان معروف بين المدينة ودمشق ، (بينها وبين المدينة ٦٧٠ ك ، وبينها وبين دمشق ٦٨٠ ك) .

(٣) قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء .

ودع له، فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر!!

● وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، غير ما كان من أمر هذه الغزوة — لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو — فقد أخبرهم أنه يريد الروم، حتى يتأهبوا لذلك أهبته!

● كانت هذه الظروف القاسية، محكاً شديداً للإيمان وقوته، واليقين وشدته، فالمؤمن القوي لا يخاف ولا يجبن ولا يتخاذل، بل يصمد في وجه العاصفة مهما كانت قوية عاتية:

ذلك المؤمن المجاهد يغشى ساحة الوغى، والوغى يغشاه
تحت ظل السيوف يمضي قويّ سيفـــه: لا إله إلا الله

ولذلك بادر المسلمون بالاستجابة لنداء الله، وتلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذن فيهم بالنفير..

وقدموا — رضوان الله عليهم — أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وحمل كل واحد منهم روحه وسلاحه، ومضى، وكأنه يقول: (وعجلت إليك رب لترضى).

● وحين تحدث بعض المسلمين أنفسهم بالتثاقل، عاتبهم الله تعالى بقوله: (٩ : ٣٨ ، ٣٩ . يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير).

● وقد ألهبت هذه الآيات نفوس المؤمنين أجمعين، وأشعلتها حماساً فحرصوا على المسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والجهاد ضمن صفوف جيشه

وبلغ الحرص بالمسلمين أن سبعة من الأنصار – كانوا أهل حاجة وفقر – دعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليأذن لهم بخوض المعركة . ويدبّر لهم ما يركبونه للحرب ، فلما لم يجدوا عنده مايطلبون ، ولوا باكين .

وقد عذرهم الله ، وعذر إخوانا لهم من الضعفاء والمرضى ، حيث يقول : (٩ : ٩١ ، ٩٢ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ، قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) .

وقد لقب هؤلاء (بالبكّائين) .

وفي شأنهم – وشأن من على شاكلتهم – روى أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه . قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا ، وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر » .

المتخلفون من المسلمين :

● وقد تخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب ابن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة السلمي ، وأبو ذر الغفاري ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قيل له : يا رسول الله ، تخلف فلان ، يقول : « دعوه ، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه » !

* * *

كن أبا خيثمة :

• أما أبو خيثمة فقد رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم – أياماً – إلى أهله فى يوم حار . فوجد امرأتين له ، فى عريشين لهما ، فى حائطه ، قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه ، وما صنعتا له . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ! ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئا لى زاداً ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك .

فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يارسول الله : هو والله أبو خيثمة .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة فى ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد فلم أكتسب إثماً ، ولم أغش محرما
تركت « خضيباً » فى العريش و« صرمة » صفايا كراماً بسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

* * *

كن أبا ذر :

• وأما أبو ذر ، فقد تلوّم عليه بعيره ، فلما أبطأ به ، أخذ متاعه فحمله على

على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً. ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين. فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» [1].

● وأما كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع فقد أنزل الله تعالى فيهم قوله: (٩ : ١١٧ – ١١٩ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

---

(١) لما نفى أبو ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم، فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعينونا على دفنه. فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عمار، فلم يرعهم إلا الجنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه. قال: فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي، ويقول: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله ابن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى تبوك.

(الروض الأنف جـ ٨ ص ٣١٥).

ولهؤلاء الثلاثة حديث رائع ، ننقل بعضه في آخر حديثنا عن سورة التوبة - وخاصة مذكرات « كعب بن مالك » تلك المذكرات التي ينبغي أن يتأملها المسلمون ، ويفهموها .

* * *

المتخلفون من المنافقين :

ويكفينا في هذا الصدد أن نقرأ ما ورد عن ذلك من الآيات في سورة التوبة ، وقد ورد عنه الشيء الكثير - من ذلك قوله تعالى : (٩ : ٤٢ وما بعدها - لو كان عرضاً قريباً ، وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) ومنه : (٩ : ٨١ وما بعدها - فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون : فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) وقد صورت السورة في عديد من آياتها ما كان عليه هؤلاء المنافقون من جبن ، وتراخ ، وإيثار للعافية ، ورضى بالدون ، وإخلاد إلى الأرض .

* * *

ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتني :

● ومن أعذار المنافقين التي تعللوا بها ، ما جاء عن الجد بن قيس ، إذ حضر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو في جهازه لهذه الغزوة - فقال له

لرسول صلى الله عليه وسلم : « يا جد ! هل لك هذا العام في جلاد بني الأصفر ـ يعني الروم ـ » ؟ فقال : « يارسول الله ، أو تأذن لي ولا تفتني ؟ ! فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر ، ولـكن أعينك بمالي » فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « قد أذنت لك » !!

وفيه نزل قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين)(١) .

* * *

كنا نخوض ونلعب :

• وفي لحظات الجد والنضال ، يلجأ المنافقون إلى العبث والاستهزاء ، والتهكم الرخيص ، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ ! هيهات ! ! هيهات ! ! فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : احبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم ، فقال : قلتم كذا .. قلتم كذا ؟ قالوا يانبي الله ، إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون !

وفي رواية ابن إسحاق عن كعب بن مالك قال : قال مخشن بن حمير :

---

(١) في رد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على جد بن قيس ، ومن على شاكلته ، بقوله تعالى (ألا في الفتنة سقطوا) أسرار بلاغية أجلها :
١ ـ افتتاحه بألا ما يفيد التنبيه والتأمل فيما بعدها ، وتحقق مضمونه إن كان خبراً .
٢ ـ التعبير عن افتتانهم بالسقوط في الفتنة العميقة .
٣ ـ تقديم الجار والمجرور (في الفتنة) على عامله (سقطوا) للدلالة على الحصر .

لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا : فإن هم أنكروا وكتموا ، فقل : بلى قلتم كذا .. وكذا .. فأدركهم ، فقال لهم : فجاءوا يعتذرون ، فأنزل الله : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) وكان الذى عفى عنه مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن . وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله !! فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ، ولا من قتله ، ولا يرى له أثر ولا عين .

● وهذه الآيات إنباء من الله تعالى بما كان يقوله المنافقون أثناء سيرهم إلى تبوك من الاستهزاء بتصديه لقتال الروم . .

وكان دفاعهم عن أنفسهم أنهم لم يكونوا جادين فيما يقولون . ولكنهم كانوا هازلين لاعبين ، كما هو شأن الذين يخوضون فى الأحاديث المختلفة للتسلى واللهو . . و (الخوض يستعمل أكثره فى الباطل : لأنه مأخوذ من الخوض فى الماء أو فى الوحل . قال تعالى فى سورتى الزخرف والمعارج : (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وقال فى سورة الطور : (فويل للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) وقال فى سورة النساء : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) والذى نزله — سبحانه وتعالى — عليهم فى الكتاب ، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام التى نزلت قبل هذه السورة لأنها مكية وهذه السورة مدنية — : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) .

لا تنفروا فى الحر :

● ولقد راح المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول يثبطون المسلمين عن الغزو قائلين : « لا تنفروا فى الحر » ويحكى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم السورة هذا التقاعس والخور ، وإشاعة الخوف والنكوص ـ فيقول : (٩ : ٨١ ـ ٨٣ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا : لا تنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً ، جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) .

● وإنما فرح المنافقون بمقعدهم خلاف رسول الله . . : لأنهم لا يؤمنون بما فى الخروج معه صلى الله عليه وسلم من أجر ، وخير .

وإنما قالوا لا تنفروا فى الحر . . نهياً لأصحابهم عن المعروف ، وإغراء لهم بالثبات على المنكر . .

وإنما قال الله تعالى لهم (قل نار جهنم أشد حرا) لأن حر الدنيا مهما طال واشتد ، ينتهى ويزول ، أما نار جهنم فحرها دائم يلفح الوجوه ، وينضج الجلود ، وينزع الشوى ، ويطلع على الأفئدة . .

وقوله تعالى : (فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيراً) معناه ، كمعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم

كثيرا(١) » وفى رواية(٢) : « لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا ، يظهر النفاق ، وترتفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، ويتهم الأمين ، ويؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشرف(٣) الجون ، الفتن كأمثال الليل المظلم » .

● ثم يقول الله تعالى لنبيه – تعقيباً على هذا الموقف الجبان – (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين)!

هكذا : لن تخرجوا معى أبداً .. فى أى سفر !!

ولن تقاتلوا معى عدواً .. أىّ عدو !!

وما قيمة أن يخرج فى صفوف المؤمنين هذا الغثاء الذى لا قيمة له ، ولا غناء فيه ؟؟!

* * *

ومنهم من يلمزك فى الصدقات :

● والمنافقون يبحثون عن « الربح » دائماً ، فالحلال « ما حلّ » فى يديهم والحرام ما « حرموه » ! فإذا فاتهم المغنم كفروا وفجروا ، وحقدوا واستكبروا .

● روى البخارى والنسائى ومصنفو التفسير المأثور عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً ، إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى ، فقال : اعدل يا رسول الله ! فقال : ويلك !! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ائذن لى فأضرب عنقه . فقال رسول الله

---

(١) رواه الجماعة إلا أبا داود من حديث أنس رضى الله عنه .
(٢) رواها الحاكم عن أبى هريرة .
(٣) الشرف – بضمتين – جمع شارف وهى الناقة المسنة ، والجون : السوداء . أى : [illegible] ، فهى تشبه ، ويروى [illegible] . أى [illegible] من مشرق المدينة .

صلى الله عليه وسلم : « دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم » !

وفيهم نزل قول الله تعالى : (ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) .

* * *

ومنهم الذين يؤذون النبي :

● ومن خلق المنافقين « الهمز » و « اللمز » و « الغيبة » و « النميمة » و « إيقاظ الفتنة النائمة » !

● أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيجلس إليه . فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : « إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه » .

وفيه وفي أمثاله نزل قول الله تعالى : (٩ : ٦١ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) .

● وقولهم (أذن) من تسمية الشخص باسم الجارحة للمبالغة في وصفه بوظيفتها ، وهو كثرة سمع ما يقال وتصديقه ، كأنه كله أذن سامعة ، كقولهم للجاسوس : (عين) .

وإنما أرادوا بإطلاق (الأذن) إطلاق لازمها، وهو عدم الدقة في التمييز بين ما يسمع، وتصديق ما يعقل وما لا يعقل.

وقد لقنه الله — سبحانه وتعالى — الرد عليهم بقوله: (قل أذن خير لكم) أي: نعم هو أذن، ولكنه نعم الأذن؛ لأنه أذن خير لا كما تزعمون، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق، وما وافق الشرع، وما فيه الخير والمصلحة للخلق.

● وإنما كان — صلى الله عليه وسلم — أذن خير لهم؛ لأنه كان يعاملهم بالحلم، وما يقتضيه حكم الشرع من العمل بالظواهر، ولو كان عاملهم بما تقتضي ما يقولون من كونه (أذن) لما سلم واحد منهم من عقابه، ولكنه كان دائماً يعرض عنهم، ويقول: « إني أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »!!

* * *

ومنهم من عاهد الله :

● والذهب في حياة المنافق هو كل شيء: الخلق، والفضيلة، والدين

والذهب في عقله.. ثمن أي شيء: المواهب، والضمائر، والرجال!

والذهب في قلبه.. مقياس كل شيء: الحق والنور والخير والجمال!

فهو إلهه الذي يعبده، ويحمده، ويسجد له، ويرغب فيه، ويرهب منه!

ولغة المنافق، لغة لها « رنين » خاص: تسمع فيها « وسوسة » الذهب، و « أنانية » الثروة، و « غطرسة » المستبد، و « عزة » المرابي!

أخرج الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ العسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والباوردي وأبو نعيم في معرفة الصحابة

وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ـ قال :

● جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا . قال : ويحك يا ثعلبة : أما ترضى أن تكون مثلي ؟ فو الله لو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً وفضة لسارت ! قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقني مالا ، فو الذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره ، خير من كثير لا تطيق شكره . فقال : يا رسول الله ادع الله تعالى لي . . .

● فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم ارزقه مالا . فاتجر واشترى غنما فبورك له فيها ، ونمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة . . فتنحى بها . ونزل وادياً من أوديتها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل . . .

ثم نمت كما ينمو الدود . فضاق بها مكانه ، فتنحى بها ، فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فجعل يتلقى الركبان ، ويسألهم عن الأخبار . وفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأل عنه ، فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن المدينة ضاقت به ، وأخبروه خبره . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب . . ويح ثعلبة بن حاطب » .

● ثم إن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الصدقات ، وأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين : رجلا من جهينة ، ورجلا من بني سلمة يأخذان الصدقات . وكتب لهما أسنان الإبل والغنم وكيف يأخذانها على وجهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم .

● فخرج.. فمرّا بثعلبة.. فسألاه الصدقة.. فقال: «أرياني كتابكما».. فنظر فيه.. فقال «ما هذه إلا جزية.. ما هذه إلا أخت الجزية».. «انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا بي»..

قال: فانطلقا.. وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله.. فقالا: إنما عليك دون هذا.. فقال: ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخيار مالى!! فقبلاه!!

● فلما فرغا مرّا بثعلبة.. فقال: «أرياني كتابكما»!!.. فنظر فيه فقال: «ما هذه إلا جزية.. ما هـــذه إلا أخت الجزية.. انطلقا حتى أرى رأيي»!!

* * *

وانطلقا.. حتى قدما المدينة.. فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم.. قال ـ قبل أن يكلمهما: «ويح ثعلبة بن حاطب.. ويح ثعلبة بن حاطب.. ويح ثعلبة بن حاطب» ودعا للسلمى بالبركة..

وأنزل الله تعالى: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به، وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن الله هو يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

● قال فسمع بعض أقارب ثعلبة ـ فأتى ثعلبة، فقال: «ويحك يا ثعلبة. أنزل الله فيك كذا.. وكذا». قال: فقدم ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة مالى!! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد منعنى أن أقبل منك»!

قال: فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عملك بنفسك، أمرتك فلم تطعنى. فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى.

• ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه ، فقال : « يا أبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار » فقال أبو بكر رضى الله عنه : « لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبلها أنا ؟ » فلم يقبلها أبو بكر . ثم ولى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فأتاه فقال : « يا أبا حفص ، يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى » . فقال عمر : « لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، أقبلها أنا ؟ » ، ثم ولى عثمان ، فهلك فى خلافة عثمان .

* * *

• ثم تقول الآيات البينات :

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) .

لم يكتف « ثعلبة » ورفاقه بما فعلوا ، بل أخذوا يتقولون الأقاويل على المتصدقين ، ويلقون الأشواك فى طريق العاملين .

واقرأ معى بقية القصة :

• روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنهما ، قال : « لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا (مراء) . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم) .

• وروى الإمام أحمد عن أبى السليل ، قال : « وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع ، وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة ؟ » . قال : فحللت من عمامتى لوثا أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركنى ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتى . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا .

، لا أصغر منه ولا أدم بناقة صفىّ لم أر بالنقيع ناقة أحسن منها . فقال يا رسول الله : أصدقة ؟ قال : نعم . قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل . فقال : هذا يتصدق بهذه ؟ فوالله لهى خير منه .

قال : فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : كذبت بل هو خير منك ومنها — ثلاث مرات ؟؟

ثم قال : « ويل لأصحاب المئين من الإبل — ويل لأصحاب المئين من الإبل .. ويل لأصحاب المئين من الإبل » قالوا : إلا مَنْ يا رسول الله !

قال : إلا من قال بالمال هكذا .. وهكذا — وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله — يعنى : إلا من أنفق أمواله فى سبيل الحق ..

ثم قال : « قد أفلح المزهد المجهد . قد أفلح المزهد المجهد .. قد أفلح المزهد المجهد » يعنى : المزهد فى العيش .

والمجهد فى العبادة .

* * *

● ثم .. تنتهى قصة ثعلبة ...

الرجل الذى ألجأه الفقر والحاجة إلى معرفة الله ، والاعتياد بنفسه فلما أصاب ما أمّل من غنى ، نسى الله ونسى أيامه !!

الرجل .. الذى كان يؤمن بالإنسان كأخ فى الدين ، وزميل فى الطريق ، ورفيق فى الحياة : فلما تكاثر ماله كفر بالإنسان وبالطريق ، وبالحياة !!

الرجل الذى قام من الذهب « صنما » ثم سجد له سجدة عميقة ، فيها ذل العابد ، وهيام العاشق ، وعربدة المفتون !.

وثعلبة .. ليس رجلا واحدا حفظ له التاريخ قصته .. إن « ثعلبة » رجال

كثيرون .. يعيشون في أزمنة كثيرة .. في نفس الضمير .. ونفس التفكير .. ونفس الشعور الشرس !!

إن « ثعلبة » يمثل الشعار المادي .. الذي يجعل الإنسان يغفل عن كل شيء حتى عن نفسه .. ويلهو بكل شيء حتى بمقدساته هو ..

* * *

مناقشة قصة ثعلبة :

وفي قصة ثعلبة — سؤال ينبغي أن نقف قليلا لنناقشه — هو : — أليس مجيء ثعلبة ، وحثوه التراب على رأسه توبة ؟ فلماذا لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم صدقته ؟!

والذي يوحي به السياق أن « ثعلبة » لم يجئ تائباً .. وإنما جاء راغباً في دفع العار الذي لحقه .. وإنما منع الله نبيه من قبول صدقته وصدقة أمثاله .. ليعلموا أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً : (٩ : ٥٣ ، ٥٤ قل : أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .

قال الشهاب[1] : مجيء ثعلبة وحثوه التراب ليس لتوبة من نفاقه : بل للعار الذي لحقه من عدم قبول زكاته مع المسلمين وقوله صلوات الله عليه : « هذا عملك » أي جزاء عملك ، وهو رفضه إعطاء الصدقة ، مع مقالته الشنعاء !!

وقال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته ، وهو مكلف بالتصدق :

(١) القاسمي : جـ ٨ ص ٣٢٠٨ .

أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترىء الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وترك سعاة النبي صلى الله عليه وسلم ! !

وقال الرازى : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد : يورث النفاق . فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به ، ومذهب الحسن البصرى رحمه الله : أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية وبقوله عليه السلام : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[1] .

ويقول القاسمى[2] : « دلّ قوله تعالى : (إلى يوم يلقونه) على أن ذلك المعاهد مات منافقاً » !

* * *

مسجد الضرار :

يقول الله تعالى : (٩ : ١٠٧ – ١١٠ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل : وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) ج ٨ ص ٣٢١٠ .

● وسبب نزول هذه الآيات : أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له « أبو عامر الراهب » . وكان قد تنصَّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش ، فألَّبهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين ، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه : وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار : فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه !! فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر !!

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم ، وتمرد ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة !!(١) .

● ولما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من أحد ، ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور : ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على

---

(١) مات كافراً بقنسرين (كورة بالشام) .

النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك.

• وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار!! فأمر بهدمه وتحريقه.

• يقول القاسمي[1]: دلت الآيات على أن كل مسجد بُنيَ على ما بُني عليه مسجد الضرار أنه لا حكم له ولا حرمة، ولا يصح الوقف عليه!

وقال الزمخشري: كل مسجد بني مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار.

---

(١) جـ ٨ ص ٣٢٦٨.

وقال الإمام ابن القيم (١) : فى فوائد غزوة تبوك :

ومنها : تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها وهدمها : كما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وأمر بهدمه ، وهو مسجد يصلى فيه ، ويذكر اسم الله فيه ، لما كان بناؤه ضرارا ، وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوى المنافقين ، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله : إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له ، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك وأوجب ، وكذلك محال المعاصى والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين ؛ وأرباب المنكرات ، وقد حرق عمر رضى الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفى وسماه (فويسقا)وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية ، وهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة ؛ وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك (٢) .

● والذين يعودون مجدداً على إقامة أماكن الشقاق والنفاق ملعونون مذمومون !

ففى القرطبى (٣) : قال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا من بناة مسجد الضرار بم كنت تعين فى هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية ، فقال : أبشر بها ، سارية فى عنقك من نار جهنم !

---

(١) زاد المعاد حـ ٢ ص ١٠ .
(٢) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣) حـ ٨ ص ٢٥٤ .

● كذلك فإن الذين يعاونون معنوياً على هذا العمل ملعونون مذمومون .

فقد روى القرطبي - أيضاً : أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء ، سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمع بن جارية أن يصلى لهم فى مسجدهم ، فقال : لا . ولا نعمة عين !! أليس بإمام مسجد الضرار ؟ فقال له مجمع : يا أمير المؤمنين لا تعجل علىّ ، فوالله لقد صليت فيه ، وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرأون من القرآن شيئاً ، فصليت ولا أحسب ما صنعت إثماً ، ولا أعلم بما فى أنفسهم ، فعذره عمر رضى الله عنهما وصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء !!

● وقد وصف الله تعالى مسجد الضرار بأربع صفات : (ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

وبضدّ هذه الصفات تتحدد رسالة المسجد - فهى :

١ - للمنفعة .. لا للضرر .

٢ - وللإيمان .. لا للكفر .

٣ - ولتوحيد الصفوف . لا للتفريق بين المؤمنين !

٤ - ولنشر الدعوة .. لا للإرصاد لمن حارب الله ورسوله !

. . .

ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً !

● ثم تقول « سورة التوبة » : (٩ : ٨٤ ، ٨٥ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ،

ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) .

وهكذا . . تقول السورة كلمتها الأخيرة فى المنافقين . . وهم فى الطريق إلى مثواهم الأخير ! ! فهى تدمغهم فى آخر لحظة بهذا الاتهام البشع (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) .

ومن أجل هذه الخاتمة الخائبة جاء النهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مرتين (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً) .

(ولا تقم على قبره) !!!

● والمقصود بالصلاة فى قوله تعالى : (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً) صلاة الجنازة ، وبالقيام على قبره : الوقوف على القبر عند الدفن والدعاء للميت بالتثبيت كما يفعل بالمؤمنين عند دفنهم . . فقد روى أبو داود والحاكم وصححه والبزار من حديث عثمان رضى الله عنه ، قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه . فقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » .

● وينبغى لنا أن نتوقف قليلا لنناقش الأحاديث التى تروى بهذا الصدد والتى تدور حول « وفاة عبد الله بن أبى » وصلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، عليه واستغفاره له وتكفينه فى قميصه .

فقد روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : « لما توفى عبد الله بن أبى : دُعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلت : أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى

القائل : كذا وكذا . والقائل : كذا وكذا - أعدّد أيامه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم — حتى إذا أكثرت ، قال : يا عمر أخّر عنّى ، إنى قد خيّرت ، قد قيل لى : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها . ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لى ، ولجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ! فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « لما توفى عبد الله بن أُبى بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيّرنى الله فقال : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق ، قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : (ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) زاد مسلم فى رواية أخرى : « فترك الصلاة عليهم » .

وروى مسلم من حديث جابر بن عبدالله كان يقول : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبر عبدالله بن أُبى » وفى رواية « جاء إلى عبدالله بن أُبى بعد ما أدخل فى حفرته ، فأخرجه من قبره ، فوضعه على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه » .

٥ – وقد لاحظ العلامة رشيد رضا على هذه الأحاديث عدة ملاحظات نثبتها مع بعض التصرف، لما فيها من الفائدة :

١ – جعل الصلاة على ابن أُبَي سبباً لنزول آية النهي ، مع أن سياق القرآن صريح في أنها نزلت في سفر غزوة تبوك سنة ثمان ، وإنما مات ابن أبي في السنة التي بعدها .

٢ – قول عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : « وقد نهاك ربك أن تصلي عليه » يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أُبَي . وقوله بعده : « فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : (ولا تصلِّ على أحد منهم) الخ » نص صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

٣ – قوله : إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى خيَّرني في الاستغفار لهم وعدمه » إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كما ذكر في الحديث ، ولم يكن في بقيتها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم ، وأن الله لا يهدي القوم الفاسقين . ومن ثم كان المتبادر من « أو » فيها أنها للتسوية بين ما بعدها وما قبلها لا للتخيير . وبهذا صرح المحققون ، كما فهم عمر . واستشكلوا الحديث ، إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو غيره أصح من فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخطاب الله له ، ولذلك أنكر بعضهم صحته — كما يأتي .

٤ – التعارض بين رواية « فلو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ورواية : « وسأزيد على السبعين » .

٥ – التعارض بين إعطائه صلى الله عليه وسلم قميصه لابنه ليكفنه فيه ، وحديث جابر الذي فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه من قبره وألبسه قميصه .

٦ — إذا أمكن أن تكون الصلاة على ابن أُبى قبل نزول النهى عن الصلاة عليهم فلا شك فى أنها كانت بعد آية : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) وآية : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والجزم فى كلا الآيتين بأن الله لن يغفر لهم[1] .

• وليس « رشيد رضا » وحده هو الذى ناقش متن هذا الحديث ، فمن قبله ناقشه القاضى أبو بكر ، وإمام الحرمين ، والغزالى وغيرهم .

يقول القاضى أبو بكر — منكراً صحة الحديث — : لا يجوز أن يقبل هذا ، ولا يصح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله . ويقول فى التقريب : هذا الحديث من أخبار الآحاد التى لا يعلم ثبوتها .

ويقول إمام الحرمين : هذا حديث لا يصححه أهل الحديث .

ويقول الغزالى فى المستصفى : الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح .

• إذا تحقق هذا فإن الآية تبقى بين أيدينا نصاً محكماً فى نهى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين أو الاستغفار لهم .. وتاريخ النزول — كما أسلفت — يؤكد أن الآيات سبق نزولا من موت عبد الله ابن أُبى ! !

* * *

مذكرات كعب بن مالك :

انتهت غزوة تبوك . . وقد عاد منها الرسول صلى الله عليه وسلم مظفراً منصوراً . . فقد بث الرعب فى قلوب أعداء الله . وأعداء دينه .

---

(١) تفسير المنار حـ ١ ص ٦٦٦ .

ولما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا وكانوا ثمانين من المنافقين ، وثلاثة من المسلمين - وهم الذين أسلفنا حديثهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم» وأعرض عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه !!

أما المنافقون .. فقد راحوا يبذلون الأيمان الكاذبة سخاء وقح .. (٩ : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل : لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم . وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .

وهكذا شأن المنافقين دائماً ... يحصّنون أوكارهم بالأيمان الفاجرة ، ثم يستخفون بها من عين النهار !!

فهم دائماً يحلفون ..

وهم دائماً يكذبون .. ويفجرون !!

فتراهم في الآية ٤٢ كما يقول الله تعالى : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون) .

وفي الآية ٥٦ : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم . وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) .

وفى الآية ٦٢ : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) .

وفى الآية ٧٤ : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا) .

وفى الآية ١٠٧ : (وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) .

* * *

● وأما المسلمون الصادقون .. : وهم الثلاثة الذين خُلفوا .. فيكفى أن نقدم مذكرات واحد منهم ـ هو : « كعب بن مالك » رضى الله عنه ! قال :

● لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ممن تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ؛ وإن كانت بدر أذكر فى الناس .

● وكان من خبرى حين تخلفت عنه فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة .

● وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يريد غزوة إلا ورّى عنها بغيرها ـ حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً وغزو عدو كثير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير

لا يجمعهم كتاب حافظ. (يعني: بذلك الديوان) قال: فقلّ رجل أن يتخلف يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك يخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله.

● وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طابت الثمار وأحبت الظلال. والناس إليها صعر (مائلون) فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتجهز المسلمون معه وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة. فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم. فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم. وليتني فعلت. ولم أفعل، وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم، يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصاً [مطعوناً] عليه في النفاق. أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء.

● ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، والنظر في عطفيه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت. والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما بلغني أن رسول الله قد توجّه قافلا من تبوك حضرني بثّي، فجعلت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه. وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة.

● وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس

الناس . فلما فعل ذلك جاء المخلفون . فجعلوا يحلفون له ويعتذرون . كانوا بضعة وثمانين رجلا . فيقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم . ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى . حتى جئت فسلمت عليه . فتبسم تبسم المغضب . ثم قال لي تعالَهْ ، فجئت أمشي ؛ حتى جلست بين يديه . فقال لي : ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قلت إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذباً لترضين عني وليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو عقباي من الله فيه . ولا والله ما كان لي عذر . ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدقَ فيه ، فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت .

● وثار معي رجال من بني سلمة ، فاتبعوني وقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا . ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول الله بما اعتذر به إليه المخلفون . قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك . فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا أحد غيري ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مقالتك ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري من بني عمرو بن عوف ، وهلال ابن أبي أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة . فمضيت حين ذكروهما لي .

● ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا — حتى تنكرت لي نفسي والأرض ، فما هي التي بالأرض كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت

أخرج . وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق . ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ! . ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر . فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني .

● حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي . وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؛ فسكت فعدت فناشدته فسكت عني : فعدت فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، ووثبت فتسورت الحائط .

● ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشي بالسوق إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك قال فجعل الناس يشيرون إليّ حتى جاءني ، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكان الكتاب مكتوباً في سرقة من حرير (شقة) فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، فالحق بنا نواسك » فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ؛ قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها إلى تنّور فسجرته بها .

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله يأتيني فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي الحقي بأهلك . فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض .

● وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لاخادم له أفتكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك ، قالت : والله يارسول الله ما به من حركة إلىّ ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

● فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذنه فيها ، وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

● فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التي ذكر الله بنا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت عليّ نفسي . وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سلع ، فكنت أكون فيها ، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج — وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون ، وركض رجل إلى فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت ثوبي فكسوتهما إياه ببشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما . ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة يقولون ليهنك توبة الله عليك : حتى دخلت المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن

عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة(١) .

فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله .

• وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يارسول الله إن الله قد نجانى بالصدق ، وإن من توبتى إلى الله ألا أحدث إلا صدقاً ما حييت ، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى الله ، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى – فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا . فإن الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال : (٩ : ٩٥ ، ٩٦ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين كعب بن مالك وطلحة بن عبيد الله .

القوم الفاسقين) .

قال كعب : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه .. قضى » .

* * *

● وقد أنزل الله تعالى فى شأن توبتهم قوله : (٩ : ١١٧ - ١١٩ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

* * *

هذه هى « سورة التوبة » السورة التى كان المنافقون يخشون نزولها : (٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل : استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) . ولكن الله أنزلها حسرة عليهم وخزياً لهم ، وتحذيراً للمسلمين — فى كل زمان ومكان — حتى لا ينخدعوا بهم أو بما يقولون ويفعلون ! !

فى سورة الحج

نماذج بشرية :

(٢٢ : ٣ ، ٤ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

(٢٢ : ٨ – ١٠ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) .

(٢٢ : ١١ – ١٣ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) .

* * *

ومن الناس :

لفظ تفتتح به بعض الآيات القرآنية : أو يجيء فى خلالها ، وأغلب الظن أنه يذكر فى معرض الحديث عن المنافقين خاصة .

فى سورة البقرة : (٢ : ٨ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .

(٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب

الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ، أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب) .

(٢ : ٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق) .

(٢ : ٢٠٤ – ٢٠٦ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

وفى سورة العنكبوت : (٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) .

وفى سورة لقمان : (٣١ : ٦ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) .

(٣١ : ٢٠ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) .

● فتلك سبعة مواضع تكررت فيها لفظ (ومن الناس) فإذا ما أضيف إليها المواضع الثلاثة التى جاءت فى سورة الحج : فإنها تصبح عشرة كاملة !!

ومن خلال هذه المواضع العشرة : نلتقى بنماذج المنافقين :

● وأنت تلتقى بالمنافق المخادع الذى يعلن الإيمان شعاراً ودثاراً ، ثم يخفى فى حناياه الكفر الدنىء الوبىء ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق الذى يعفر جبهته فى كل اتجاه ، ويلقى بمشاعره وعواطفه وحبه تحت أقدام « الأنداد » التى عبدها من دون الله ، ثم يحرق « قلبه بخوراً » فى معابدها وهياكلها ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق « العليم اللسان » الخئون الجبان ، فيعجبك مقاله وتغضبك فعاله !

● وأنت تلتقى بالمنافق « الخائر » العزيمة ، « الخاسر » الصفقة ، الذى تخلى عن دينه عند أول امتحان ، ويولى الأدبار عند أول ابتلاء !!

● وأنت تلتقى بالمنافق الذى يبيع « قرآن الله » ودينه بالمعازف ، والملاهى ، والأدب الرخيص ، والفن العارى ، والفكر المستورد !!

● وأنت تلتقى بالمنافق السفيه[1] الذى يقضى وقته فى « الجدل » و« المراء » و« المكابرة » دون رغبة فى الحق أو الوصول إليه !!

* * *

● ثم تلتقى فى « سورة الحج » بنماذج بشرية أخرى !!

● و« سورة الحج » سورة ذات طابع قوى شديد رهيب تلمح ذلك فى افتتاحها وفى سياقها .

ففى افتتاحها يصور الله تعالى هول يوم القيامة وزلزلته ـ فيقول تعالى : (٢٢ : ١ ، ٢ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

وفى أثنائها يصور هول العذاب المعد للكافرين فيقول : (٢٢ : ١٩-٢٢

---

(١) مراتب الجهل ثلاثة :
الجهل البسيط : وهو أن يجهل ويعلم أنه يجهل .
الجهل المركب : وهو أن يجهل ويجهل أنه يجهل .
السفه : وهو أن يجهل ويجهل أنه يجهل . . ثم يدافع عن جهله ونزقه !

فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

ويصور المصير الخائب الخاسر لمشرك : (٢٢ : ٣١ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) .

ثم يصور اليأس القاتل الذى يعترى قلوب الجاحدين والمعاندين : (٢٢ : ١٥ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) .

و... ثم يصور مصير الطاغين والظالمين والمفسدين : (٢٢ : ٤٥ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) .

* * *

• ومن خلال هذا الجو الرهيب المهيب الذى يشيع فى آيات السورة وكلماتها . ذلك الجو الذى تخشع له القلوب ، وتدمع له العيون ، وترتجف من هوله الفرائص : تطل علينا « صور » المنافقين : شرسة الملامح ، جاحظة العيون ، مصعرة الخد ، لاوية الجيد ، هازلة ، هازئة ، مجادلة فى الله بغير علم ! !

• وتأمل قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) تجد أن المنافق لا يستصحب معه حجة ، ولا دليلا ، ولا برهانا ، ولا كتابا منيرا ؛ وإنما يحمل معه النزق ، والهوس ، والجنون ، والمجون ، والطيش ، والسفه ، والاستهزاء ! !

يقول الزمخشرى : « وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال ، فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ، ولا يعض فيه

بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ، ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل » .

• وتأمل لماذا كرر الله سبحانه وتعالى هذا التعبير مرتين (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) مرة فى الآية الثالثة ، ومرة فى الآية الثامنة : تجد أن المرة الأولى ذكرت فى معرض « القيامة » وأهوالها ؛ فكأن الآية تقول — وعلى الرغم من أهوال القيامة ، وشدة عذابها فإن من (الناس من يجادل فى الله بغير علم) ! !

أما المرة الثانية فقد جاءت بعد الحديث عن عظمة الله وقدرته ، وآياته فى الآفاق وفى الأنفس ، فكأن الآية تقول — وعلى الرغم من عزة الله وقدرته وسلطانه فإن من (الناس من يجادل فى الله بغير علم) !!

وقيل : إن الآية الأولى فى المقلدين ، والآية الثانية فى المقلَّدين ! !

ويقول الرازى : فإن قيل : كيف يصح هذا ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل تصويباً لتقليده ! !

• وتصور آيات « جدال المنافق » على الوجه التالى :

أدلتــه : (بغير علم) .

أسلوبه : (ثانى عطفه) .

أستاذه : (ويتبع كل شيطان مريد) .

هــدفه : (ليضل عن سبيل الله) .

حيـاته : (له فى الدنيا خزى) .

آخرته : (نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) .

• وقوله تعالى (ثانى عطفه) معناه : لاوٍ رقبته ، وثنى العطف ، كما

قول الزمخشري : كناية عن التكبر والخيلاء ، كتصعير الخد ، ولي الجيد .

وهو الأسلوب الذي يواجه به المنافقون والكافرون هيمنة الحق وسلطانه.

وفي معناه آيات كثيرة كقوله تعالى : (٥١ : ٣٨ ، ٣٩ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون) (٤ : ٦١ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) (٦٣ : ٥ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) وفي قول لقمان لابنه : (ولا تُصَعِّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً) .

وماذا يملك المعاند الجبان في مواجهة الحق غير الإدبار والاستكبار وتصعير الخد ؟ !

* * *

● ثم تقدم « السورة » نموذجاً بشرياً آخر . .

إنه ذلك الإنسان الذي يرى أن العقيدة محل مقامرة ومغامرة ومتاجرة !!

(فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) !!

لأنه لم يؤمن عن يقين ، وإذعان ، وتسليم : وإنما آمن « رياء » و « سمعة » ! !

أو كما قال الله تعالى : (يعبد الله على حرف) على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم !!

إن المنافق لا يثق بوعد الله ، ولا بوعيده ، ولا يرجو له وقاراً ، ولا يخشى له لقاء ! ! ومن أجل هذا ينخلع قلبه عند أول نازلة ! !

ولكن . . إلى أين يولِّي المنافق وجهه ، بعد أن أعرض عن الله ؟

(يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه) .

(يدعو لمن ضره أقرب من نفعه)[١] !!

وهكذا يترك الإله الواحد الخلاق الرزاق بديع السموات والأرض ، وينصرف إلى آلهة شتى لا تنفع ولا تشفع !

(ذلك هو الضلال البعيد) !!

(لبئس المولى ولبئس العشير) .

• روى البخاري عن ابن عباس — في سبب نزول الآية — قال : « كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله ، قال : هذا دين سوء » !!

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٢] : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت ، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه : فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر .

وقال أبو سعيد الخدري[٣] : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله فتشاءم بالإسلام . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقلني ، فقال :

---

(١) نفت الآية الأولى ضرر ما يعبد من دون الله : « يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه » أي : باعتبار نفسه ، وأثبتت الآية الثانية ضرراً له « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » أي باعتبار معبوديته .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٠٩ .

(٣) تفسير القرطبي جـ ١٢ ص ١٧ .

إن الإسلام لا يقال . فقال : إنى لم أصب فى دينى هذا خيرا : ذهب بصرى ومالى وولدى ! فقال : « يا يهودى ! إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب » ! !

* * *

● أرأيت إلى هذه « النماذج البشرية » .. وكيف صورتها آيات القرآن !!؟

أرأيت كيف عبرت الآيات أصدق تعبير عن حركات الوجوه ، ودخائل النفوس ، وكوامن القلوب !! ؟

أرأيت .... ؟

فى سورة النور

الذين يحبون أن تشيع الفاحشة :

(٢٤ : ١١ — ٢٦ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم ؛ بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا : هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء : فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك ! ! هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم .

يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم . ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم .

إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة

ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات : أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

* * *

• وتروى أمنا الصديقة المبرأة عائشة رضى الله عنها سبب نزول هذه الآيات — فتقول[1] :

• كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه .

• قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها[2] فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه . فسرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل . ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل . فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فإذا عقد لى من جزع ظفار[3] قد انقطع ، فالتمست عقدى ، وحبسنى ابتغاؤه .

• وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك

---

(١) هى رواية البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة .
(٢) هى غزوة بنى المصطلق من خزاعة سنة ست .
(٣) الجزع : خرز معروف فى سواده بياض كالعروق ، الظفار : مدينة باليمن .

خفافًا لم يثقلهن اللحم ، إنما تأكل العُلْقة[١] من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن . فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلي الذي كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ .

● فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت ؛ وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني ، فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمّرت وجهي بجلبابي ، ووالله ما كلمني كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها ؛ فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين[٢] في نحر الظهيرة .

● فهلك من هلك[٣] ، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبيّ ابن سلول .

● فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني[٤] في وجعي : أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين

---

(١) العلقة ـ كغرفة ـ : القليل.

(٢) موغرين : داخلين ، ونحر الظهيرة : هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .

(٣) أي بسبب الإفك .

(٤) يريبني ـ بفتح أوله وبضمه ـ : أي : يشككني ويوهمني .

أشتكى . إنما يدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم (١) ثم ينصرف . فذلك الذى يريبنى .

● ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت ، فخرجت مع « أم مسطح » قِبَل المناصع ـ وهو متبرَّزنا ـ وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا . وأمرُنا أمر العرب الأُول فى التبرز قبل الغائط .

● فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهى بنت أبى رهم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مسطح بن أثاثة .

● فأقبلت ـ أنا وأم مسطح ـ قبل بيتى قد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلاً قد شهد بدراً ؟ ! قالت : أى هنتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت : قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك . فازددت مرضاً على مرضى .

● قالت : فلما رجعت إلى بيتى ، ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « كيف تيكم » ؟ ، فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ؟ قالت : فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجئت أبوى .

● فقلت لأمى : يا أمتاه ، ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية ، هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت : فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟

---

(١) زاد البخارى بعد هذا : « ثم يقول : كيف تيكم .. الخ »

● قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي(١) دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي.

● فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي(٢) يستأمرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة بن زيد، فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك، وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟! قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه(٣) عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن(٤) فتأكله.

● فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني(٥) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي! فوالله ما علمت على أهلي

---

(١) لا يرقأ: لا ينقطع.

(٢) الوحي: بالرفع فاعل، أي طال لبث نزوله، وضبط بالنصب على أنه مفعول به، أي: استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم الوحي.

(٣) إن رأيت: ما رأيت، وأغمصه: أعيبه.

(٤) الداجن: الشاة التي تألف البيوت ولا تخرج إلى المرعى.

(٥) من يعذرني: من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعاله، ولا يلومني! — أو من ينصرني.

إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى : فقال : يارسول الله ، أنا أعذرك منه : إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية[1] ، فقال لسعد : كذبت ! لعمر الله[2] لا تقتله ، ولا تقدر على قتله ، وقام أسيد بن حضير — وهو ابن عم سعد — فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخفضهم[3] حتى سكتوا وسكت .

● قالت : فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، قالت : وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحل بنوم ، ولا يرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدى .

● قالت : فبينما هما جالسان عندى ، وأنا أبكى ، فاستأذنت علىّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى .

● قالت : فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) احتملته الحمية أى : أغضبته .

(٢) لعمر الله : أى : وبقاء الله .

(٣) يسكنهم ويهون عليهم الأمر .

فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها . وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى .

• قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس . ثم قال : « أما بعد ياعائشة . فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب ، فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .

قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال . قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، إنى والله لقد علمت ، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة ، لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى بريئة منه لتصدقنى ، والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبى يوسف ، قال : (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) .

• قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئنى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئنى الله بها .

• قالت : فوالله ما رام[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خرج

---

(١) أى : مافارق .

أحد من ثقل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء[١] حتى إنه ليتحدَّر منه الجُمان[٢] من العرق — وهو في يوم شات — من ثِقَل القول الذي ينزل عليه .

● قالت : فلما سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُرِّي عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : « ياعائشة ، أما الله فقد برَّأك » فقالت أمي : قومي إليه ، قالت : فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ؛ وأنزل الله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . الآيات) .

● قالت عائشة : فلما أنزل الله تعالى هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه — وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته وفقره — : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة — رضي الله عنها — ما قال ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : (٢٤ : ٢٢ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) ؛ قال أبو بكر رضي الله عنه : بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

● قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري ، فقال : « يازينب ، ماذا علمت أو رأيت » ؟ ، فقالت : يارسول الله أحمي سمعي وبصري ، ما رأيت إلا خيراً ، قالت : وهي التي كانت تساميني[٣] من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله

---

(١) البرحاء : العرق من شدة ثقل الوحي .
(٢) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) أي تضاهيني وتفاخرني بجمالها ومكانتها عند النبي صلى الله عليه وسلم .

المريع ، وطفقت ألسنة جمة تخوض فيه فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

* * *

وقبل أن ننهى الحديث عن « الإفك ، وأهله من المنافقين » نتأنى قليلا ، لنلقى بعض النظرات على الحدث ، وعلى الآيات التى نزلت فيه :

ا — نظرات فى الحدث :

النظرة الأولى : ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم توقف فى أمر « أم المؤمنين رضى الله عنها ، وسأل عنها ، وبحث ، واستشار ، وهو أعرف الناس بمنزلته عند ربه ، وأنه سبحانه منزه عن أن يجعل تحت رسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيًّا ؟

وما بال الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل ما قاله فضلاء الصحابة : (سبحانك هذا بهتان عظيم) ؟

والجواب : أن هذا من الحكم الباهرة التى جعل الله هذه « الحديث » سببا لها ، فهو امتحان وابتلاء للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، واقتضى تمام الامتحان أن يحبس الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا : فلم ينزل عليه شيء فى أمر « الإفك وأصحابه » ! ! كذلك كان من تمام الامتحان أن توقف النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر « أمنا » الطاهرة المبرأة حتى نزل فيها ما نزل ، وبرأها الله من فوق سبع سموات ! !

● وإنما حبس « الوحى » هذه الفترة الممتدة ، حتى تنضج القضية ، وتتطلع قلوب المؤمنين إلى ما يوحيه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها ، فوافى الوحى أحوج ما كان إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ،

والصديق وآله وصحابه المؤمنون . موقف منهم أعظم موقع وأكرمه .

● ثم ـ هناك اعتبار آخر لموقف النبى فى أمر «أم المؤمنين» رضوان الله عليها . هو أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان المقصود بالأذى ، وهو الذى رميت زوجه : فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها ، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك قال : «من يعذرنى فى رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ والله ما علمت على أهلى إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلى إلا معى» !! فكان عنده من القرائن التى تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين . ولكنه صبر أمام الامتحان ، وانتظر قضاء الله فيه .

● وهناك اعتبار ثالث ـ هو : أن الله ـ سبحانه ـ أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته ، وأن يتولى ـ هو ـ سبحانه وتعالى الدفاع عن نبيه وأزواجه على أعدائه المنافقين !

النظرة الثانية : لماذا لم يُقِمْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحد على عبد الله ابن أُبى بن سلول مع أنه هو الذى تولى كبره ؟ ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بمن صرّح بالإفك فجلدوا ثمانين ثمانين ! ! ؟

وفى الجواب ـ أقوال :

● فقد قيل : إنما لم يقم رسول الله الحد على ابن سلول : لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة . والخبيث ليس أهلا لذلك . وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد .

● وقيل : إنه كان متمرسا على الإشاعات والأراجيف ، بخبث يلقى مقالة السوء بأسلوب حذر حتى لا تنسب إليه ، أو تقوم بينة ضده ! ! وقد نجح فى توريط بعض المسلمين فانجرفوا فى تياره وما يشعرون ! !

• وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو البينة، وهو لم يقرّ بالقذف، ولا شهد به عليه أحد؛ فإنه إنما كان يذكر الإفك بين (عصبته) ومشايعيه، ولم يشهدوا عليه.

وهناك أقوال أخرى ذكرها «ابن القيم» في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد»(١).

النظرة الثالثة: لما نزلت براءة عائشة، قال لها أبوها: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: «والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله».

وهذا القول دليل على عظمة إيمانها وتوحيدها، وإفرادها ربها بالحمد!! ولم يكن كلامها هذا إغضاباً للرسول صلى الله عليه وسلم أو إغاظة، وهل أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلا لكي يقرّر هذا المعنى ويؤكده.

النظرة الرابعة: لاشك في أن الذين حملوا هودج عائشة رضي الله عنها كانوا من الأولياء.. بل من خيرة الأولياء!! ومع ذلك فقد اعتقدوا أن عائشة في الهودج ولم تكن فيه!!

ومن هذا نعلم ونفهم أن أولياء الله الأحياء لا يعلمون الغيب!! فما بالك بأولياء الله الموتى!!

فكيف يدعي بعد ذلك «عباد الموتى» لأوليائهم المقبورين علم الغيب، واستجابة الدعاء، وإعطاء المدد، والقدرة على تصريف الأمور؟!.

النظرة الخامسة: وإذا رحنا نستعرض الشخصيات التي أصابها «الحدث» فإننا نجدها كما يلي:

---

(١) جـ ٢ ص ٢٨٤.

● عائشة الصديقة . فتاة حديثة السن في نحو السادسة عشرة ، وضيئة عفيفة ، طيبة شريفة ، مسلمة نشأت في حجر الإسلام منذ أيامه الأولى . . ثم هي ابنة الصديق : نشأت في كنفه الطاهر ، وزوج محمد سيد ولد عدنان . . وولد آدم ! ! يرميها المنافقون وهي غافلة !!

وتفاجأ بالخبر ... من أم مسطح .. فتتساءل مذهولة حائرة ولهى : سبحان الله !! وقد تحدث الناس بهذا ! وفي رواية أخرى تسأل : وقد علم به أبي ! فتجيب أمها : نعم . فتقول : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم ؟ - فتجيبها أمها كذلك . نعم ! !

ويواجهها الرسول النبي الحبيب - صلى الله عليه وسلم - بقوله : أما بعد !! فإنه بلغني عنك كذا وكذا . . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه : فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه !! » .

● أبو بكر الصديق . . الرجل المسلم الأول ، الذي جند نفسه للدعوة منذ فجرها ، يرمى في عرضه ، فيقول : والله ما رمينا بهذا في جاهلية . أفنرضى به في الإسلام ؟ .

وحينما تقول له ابنته المريضة المحمومة : أجب عني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

● أم رومان : التي شبهها النبي صلى الله عليه وسلم بالحور العين ، زوج الصديق ، وأم الصديقة . تحاول أن تواسي ابنتها المفجوعة ، فتقول لها : « يا بنية ! هوني على نفسك ! ! فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . . . » ! !

إنها تقول هذه الكلمات لمجرد المواساة . . ولتكفكف بها عبرات ابنتها ،

التي يكاد كبدها أن ينفلق من كثرة البكاء ! !.

● صفوان بن معطل .. المسلم المجاهد : الذي طعنه منافقون في عرضه وإسلامه .. بالمع من أم زوجة نبيه صلى الله عليه وسلم !!

يا لبشاعة الجرم ؟ ويا لوقاحة الاتهام ! !.

ولا يملك صفوان إلا أن يقول في مواجهة هذا الاتهام الصفيق :

« سبحان الله ! والله ما كشفت كنف أنثى قط » !

● ومن قبل هؤلاء جميعاً .. ومن بعد هؤلاء جميعاً ! !.. رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يرمى في طهارة فراشه ، وهو معلم الناس الطهارة ؟ !

ويتحدث الناس في المدينة شهراً كاملاً حديث الإفك بين مؤيدين ومعارضين ، وهو صلى الله عليه وسلم ساكت لا يجيب ، ولا يملك أن يضع حداً لهذه المقالة المنافقة !!

ثم ماذا ؟.

ثم تنزل الآيات برداً وسلاماً ، على هذه القلوب التي أمضها الحزن ، وأقض مضاجعها الألم !!

* * *

ب — نظرات في الآيات :

النظرة الأولى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الإفك : أعظم الكذب ، والعصبة : من الثلاثة إلى العشرة ، وهم جماعة من المنافقين تولوا اختلاق هذه الشائعة وإذاعتها عداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبيته والدينه :

النظرة الثانية : (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) الشر : ما زاد ضرره على نفعه ، والخير : ما زاد نفعه على ضرره . وليس فى الدنيا خير لا شر فيه ، ولا شر لا خير فيه ، وإنما ذلك فى الآخرة وحدها . فالجنة هى الخير الذى لا شرَّ فيه ، والنار هى الشر الذى لا خير فيه .

● والبلاء النازل على أولياء الله وأصفيائه وأحبائه : إنما هو خير ، وإن خالطه بعض الضرر من الألم العارض القليل فى الدنيا . أما فى الآخرة فلهم الخير الكثير ، والأجر العظيم .

ولهذا قال الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ولعائشة رضى الله عنها ولصفوان : (لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) وما ذلك إلا ترجيحاً لجانب النفع والخير ، على جانب الضرِّ والشر !!

النظرة الثالثة : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات أنفسهم خيراً) .

(ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) فى الآية الأولى تحضيض على الظن الحسن .

وفى الآية الثانية : نهى عن الوقوع فى أعراض الآخرين .

النظرة الرابعة : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك مبين) .

والمعنى : أنه كان ينبغى على المؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا الأمر على أنفسهم : فإن كان ذلك بعيداً فيهم ، فهو فى عائشة وصفوان أبعد .

وروى أن هذا الفهم السديد وقع من أبى أيوب الأنصارى وامرأته .

وذلك أنه دخل عليها . فقلت له : يا أبا أيوب ، سمعت ما قيل ؟ فقال : نعم ، وذلك الكذب ! ! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ؟ قالت : لا والله ! ! قال : فعائشة والله أفضل منك : قالت أم أيوب : نعم ! !

النظرة الخامسة : (إذ تلقّوْنه) قرأ محمد بن السميفع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف من الإلقاء (تُلْقُونه) .

وقرأت عائشة رضى الله عنها - وهى أعلم الناس بهذا الأمر (إذ تَلِقُونَهُ) - بفتح التاء ، وكسر اللام ، وضم القاف - من الولق وهو الكذب .

النظرة السادسة : (إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) فى هذا القول الكريم تحريم نوعين من الكلام :

النوع الأول : القول بالباطل : (إذ تلقونه بألسنتكم) .

النوع الثانى : القول بلا علم : (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) .

النظرة السابعة : (هذا بهتان عظيم) البهتان : أن يقال فى الإنسان ما ليس فيه ، والغيبة : أن يقال فى الإنسان ما هو فيه .

النظرة الثامنة : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) قال هشام بن عمار : سمعت مالكا يقول : من سبّ عائشة قتل : لأن الله تعالى يقول : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) فمن سبّ عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قتل . وذلك لأن أهل الإفك رموا عائشة - المطهّرة - بالفاحشة فبرّأها الله تعالى . فكل من سبّها بما برأها الله منه فقد كذب الله . ومن كذب الله فهو كافر ! !

النظرة التاسعة : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا

لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) أخرج ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان ، قال : من حدث بما أبصرت عيناه ، وسمعت أذناه ، فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .

وأخرج عن عطاء ، قال : من أشاع الفاحشة فعليه النكال ، وإن كان صادقاً .

وأخرج عن عبد الله بن زكريا . أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو الرجل يتكلم عند الرجل فيشتهى ذلك ولا ينكر عليه .

<u>الخطوة العاشرة</u> : (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) وخطوات الشيطان مسالكه ومذاهبه ، وواحدة الخطوات : خطوة ، وهو ما بين القدمين !

<u>الخطوة الحادية عشرة</u> : فى قوله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .

- النهى عن الحلف أن لا يفعل خيراً .
- وأن من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير . ثم ليكفر عن يمينه .

<u>الخطوة الثانية عشرة</u> : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

قال الزمخشري: « ولو فليت القرآن كله، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه — ما أنزل فيه، على طرق مختلفة، وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه. ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث من قوله تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات) إلى قوله: (هو الحق المبين) لكفى بها: حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم[1] وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله، حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين.

فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة ».

الفقرة الثالثة عشرة: (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم).

قالوا: إن معناها: النساء الخبيثات للرجال الخبيثين، والرجال الخبيثون للنساء الخبيثات، والنساء الطيبات للرجال الطيبين، والرجال الطيبون للنساء الطيبات. !! ولهذا قال من قال من السلف: « ما بغت امرأة نبي قط !! ».

وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين[2]: المعنى: الكلمات

---

(١) إنما ذكر الله سبحانه وتعالى شهادة الألسنة هنا، مع أنه [illegible] في قوله تعالى: (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) — لأن جريمة القذف تكون باللسان، [illegible] أن يشهد اللسان فيها يوم القيامة.

(٢) القرطبي ج ١٢ ص ٢١١

الخبيثات للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من الكلمات . وكذا الكلمات الطيبات للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات . قال النحاس في كتابه « معاني القرآن » : وهذا من أحسن ما قيل في الآية !! ودل على صحة هذا القول : قوله تعالى : (أولئك مبرأون مما يقولون) .

* * *

● و ... بقيت نظرة أخيرة .. نتأمل بها وجه القول الكريم : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) .

فإنها « المحور » الذي يدور حوله الحدث كله : بآلامه ، وتطلعاته ، وتساؤلاته ، وبُشْرَيَاته ، ونفاقه ، وخزيه ! !

و « الغاية » التي تهدف إليها الآيات كلها ، بمواعظها ، وزواجرها ، وعتابها ، وعقابها ، وتوجيهاتها ! !

● إن الحادثة حدثت . .

وإن الآيات نزلت . .

من أجل أن يتعلم المسلمون أن الأعراض « مصونة » لا تمس ، و« مكفولة » لا تمتهن !

من أجل أن يتعلموا : أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا – على أي وجه من الوجوه ، وبأي أسلوب من الأساليب – لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ! !

فالذين يقدمون « الفن العارى » . . ! !

والذين يكتبون « الأدب المكشوف » . . ! !

والذين يروجون « للدعارة الفكرية » . ! !

والذين ينادون « بالحرية الجنسية » . . ! !

والذين يصرون على أن يؤدى جسد المرأة « ضريبة الفن » ! !

كل هؤلاء . . . .

من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . . . ! ! !

في سورة العنكبوت

(٢٩ : ١٠ ، ١١ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ، وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) .

* * *

• تقول سورة العنكبوت في افتتاحها : (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

فهي تقول للناس أجمعين : إن الإيمان ليس شيئاً هيناً ، وإن طريق المؤمنين ليس مفروشاً بالورود والرياحين !! وإن « الفتنة » بالخير ، أو بالشر ، أو بهما معاً . هي الامتحان الإلهي الذي يدخله المؤمن : فإن شكر في السراء ، وصبر في الضراء ، وثبت في البأساء ، فقد فاز . وأما إن تهاوى ، وطار قلبه شعاعاً عند أول صدمة فقد خسر خسراناً مبيناً ! !

• وقد عدد القرآن الكريم أنواع الفتن : وهي كثيرة . نذكر منها :

— فتنة الشيطان : (٧ : ٢٧ يابني آدم لا يفتننكم الشيطان) .

— فتنة المال والأولاد : (٨ : ٢٨ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

— فتنة الشر والخير : (٢١ : ٣٥ ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

— فتنة الابتداع : (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) .

— فتنة الناس : (٢٥ : ٢٠ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة . أتصبرون ؟)

فتنة الإيذاء في الله : (٢٩ : ١٠ فإذا أوذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) .

– فتنة الهزيمة : (٣٣ : ١٤ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً) .

– فتنة العلم : (٣٩ : ٤٩ قال : إنما أوتيته على علم عندى بل هى فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

● وقد تكرر لفظ الفتنة فى القرآن الكريم ستين مرة ، وتكرر لفظ الابتلاء سبعاً وثلاثين مرة ، أما لفظ الامتحان فلم يرد إلا مرتين ! !

● وقد روى أحمد بن حنبل فى مسنده حديث سعد الذى يقول فيه : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى الله الرجل على حسب دينه : فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » .

● وقال البغوى : حدثنا أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل ، قال : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحاً » وقال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ، ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه » .

* * *

قال البغوى : « سمعت أحمد يقول : اللهم رضنا » ! !

ونحن نقول :

« اللهم رضنا » ! ! !

فى سورة الأحزاب

حم . . . لاينصرون :

(٣٣ : ٩-٢٧ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم
جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ
جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب
الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً .

وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا
غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، ويستأذن
فريق منهم النبى يقولون : إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً .
ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيراً .
ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل :
لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذاً لا تمتعون إلا قليلا .
قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ،
ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين
لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف
رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ؛ فإذا ذهب
الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله
أعمالهم . وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت
الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا
فيكم ماقاتلوا إلا قليلا .

لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً .

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما . : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما .

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) .

* * *

● تعرضت « سورة الأحزاب » لحديث عن المنافقين ، في أكثر من موضع ، وأكثر من مناسبة : فقد افتتحت بذكرهم . وحذرت النبي صلى الله عليه وسلم من شرهم ، وختمت بالحديث عنهم ، والتعريف بمصيرهم .

فكان افتتاحها كما يلي : (يا أيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين) .

وكان ختامها كما يلي : (٣٣ : ٧٢ ، ٧٣ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما) .

وفي أثنائها يتحدث الله سبحانه وتعالى عن موقف المنافقين من زواج

النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث تقول معقباً على هذا الموقف: (٣٣ : ٤٨ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا).

وفيها تهدد الله المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في المدينة وتوعدهم فقال: (٣٣ : ٦٠ — ٦٢ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا: ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا).

- وفيها حديث تفصيلي عما جرى من المنافقين في غزوة الأحزاب من خوف، وجزع، وتثبيط، وبث الشائعات والأراجيف، والانهيار النفسي!!

وفي هذا الموقف نزلت الآيات: (٩ - ٢٧) وهي الآيات التي صدرت بها هذا البحث. وقبل أن نقف بين يدي الآيات لنقتبس منها العظة، ونلتمس منها العبرة: نلتقي بأحداث «غزوة الأحزاب» و «غزوة بني قريظة».. ثم من خلال عرض أحداث «الغزوتين»: نتعرف على كثير من المعاني التي جاءت بها الآيات.

* * *

(أ) غزوة الأحزاب:

- كانت في شوال من السنة الرابعة.
- وقال رواة السنة، والسيرة، أنه:

كان من حديث الأحزاب (الخندق) أن نفراً من اليهود منهم سلام بن مشكم، وحيي بن أخطب: خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم

إلى حرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقالوا لهم: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه؛ فهم الذين أنزل الله فيهم: (٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا).

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه.

● فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، وخرجت مرة وقائدها الحارث بن عوف، وخرجت أشجع وقائدها مسعر بن دخيلة.

فلما سمع بهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل فيه المسلمون فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يعتلون بالضعف عن العمل، أو يتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا إذن. أما المسلمون فكان الرجل منهم إذا نابته نائبة من الحاجة التي لا بد منها ذكرها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – واستأذن في اللحوق بحاجته فيأذن له؛ فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمل رغبة في الخير، واحتساباً له.

فأنزل الله تعالى في المؤمنين: (٢٤ : ٦٢ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين

يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) .

ونزل الله تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن : (٢٤ : ٦٣ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد علم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وكان الذى أشار بالخندق سلمان الفارسى رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذ حوصرنا خندقنا علينا ، ولم تكن العرب تعرفه قبل ذلك .

● وكان عدد جيش المشركين عشرة آلاف .

وكان المسلمون ثلاثة آلاف . قال ابن حزم : تسعمائة فقط[1] .

● وفى البخارى عن البراء بن عازب ، قال : رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنه الغبار جلدة بطنه — وكان كثير الشعر — فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب :

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

وفى حديث سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى أنه صلى الله عليه وسلم حين ضرب فى الخندق ، قال :

---

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٢٨٢ ، وقد عقب مؤلف الكتاب على رأى ابن حزم بقوله : « وهو الصحيح » .

بسم الإله . وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

فحبذا ربًّا ، وحب دينا

وقد جاء في الصحيح عن جابر ، قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة – وهي بضم الكاف : القطعة الصلبة – فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق ، فقام وبطنه معصوب بحجر(١) ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا . فأخذ النبي — صلى الله عليه وسلم — المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيلا (أي صار رملا يسيل ولا يتماسك) .

وقد وقع عند أحمد والنسائي زيادة حسنة بإسناد حسن من حديث البراء قال : « لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فشكونا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء وأخذ المعول ، فقال : بسم الله ، ثم ضرب ضربة وقال : الله أكبر !! أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية ، فقطع آخر ، فقال : الله أكبر !! أعطيت فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر . فقال : الله أكبر !! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني » .

- وقد قاموا — في عمل الخندق — شهراً .

- قال ابن إسحاق : وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب ابن أسد صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله

---

(١) طبعاً الحجز – بالزاي المعجمة – : الحزام ، وهو الصحيح الذي يمكن تخيله . أما أن يكون المقصود : الحجر – بالراء المهملة – فهو غير مقبول ، وغير معقول . ولعله تصحيف من النساخ !!

عليه وسلم — على نصرته ، وعاهده على ذلك : فلما سمع كعب بحيي أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب افتح لي !! . قال : ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم . . إني قد عاهدت محمداً ، وإنك لست بناقض ما بيني وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً ! . قال : ويحك! افتح لي أكلمك . . وما زال به حتى فتح له . قال : ويحك يا كعب . جئتك بعز الدهر : وببحر طام . جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد : قد عاهدوني وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه . قال كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد أراق ماءه ، فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء . ويحك يا حيي ! فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء . فلم يزل حيي يفتله في الذروة والغارب ، وأعطاه عهداً وميثاقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه حصنه ، وأن يشاركه مصيره !! فنقض كعب عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

● وعظم البلاء بالمسلمين ، واشتد الخوف ، وكانوا كما قال الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً)

وابتدأ المنافقون يتحدثون ويتحركون ، فقال بعضهم : قد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر : وإن أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !! فأنزل الله فيهم : (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

وقال بعضهم : يا رسول الله !! إن بيوتنا عورة ، وإنا نخشى عليها من العدو ، فأذن لنا في الرجوع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة ، فأنزل الله فيهم : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق

منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا !

● وهكذا أصبح المسلمون بين عدوين : المشركون ، واليهود . وكان هناك عدو ثالث : يثير الفتنة ، ويبث الوهن ، ويشيع الأراجيف ، وربما كان أشد ضراوة من العدوين الآخرين : لوضوحهم وخفائه : وهذا العدو الثالث : هم المنافقون .

ووسط هؤلاء الأعداء الثلاثة ، زلزل المؤمنون زلزالا شديداً ، وراح الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه يدعون الله — سبحانه وتعالى — أن يكشف البلاء الذى نزل والكرب الذى حل .

ففي البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى أحمد عن أبي سعيد قال : قلنا : يارسول الله هل من شيء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، قال : « نعم اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » قال : فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح !!

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبرهم ، فوجدهم قد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فأصبح رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يردد هتافه المنتصر :

« لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » !!

«وكان شعار (١) المسلمين في هذه الغزوة «حم. لا ينصرون».

* * *

ب ـ غزوة بني قريظة :

• ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة؛ وذلك ليؤدبهم على نقضهم العهد في أحرج المواقف. فقد ثبت في الصحيح من حديث عائشة وحديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك؛ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحداً منهم.

• وقد حاصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بني قريظة بضعاً وعشرين ليلة؛ حتى قذف الله في قلوبهم الرعب؛ فطلبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان حليفاً لهم؛ فأرسله؛ فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه؛ فرق لهم. وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه: إنه الذبح ـ قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله!! ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت. وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة أبداً، وأن لا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً!!

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ـ وكان قد استبطأه ـ قال: أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من

---

(١) وهو ما يسمى بلغة العصر: «كلمة السر».

مكانه حتى يتوب الله عليه . فنزلت توبة أبي لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إطلاقه بيده الكريمة .

● ثم استسلمت بنو قريظة ، وطلبوا تحكيم سعد بن معاذ ؛ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد ليؤتى به ليحكم في بني قريظة ؛ فأتى به على حمار وعليه وسادة أدم ، وأحاط به قومه من الأوس — حلفاء بني قريظة — وهم يقولون : يا أبا عمرو !! أحسن في مواليك ؛ فإنما ولاك رسول الله ذلك لتحسن فيهم . فقال : لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم !!

ثم قال سعد : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم — : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات !!

● ثم أمر بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فحفرت لهم خنادق ، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق . وقتل معهم يومئذ حيي بن أخطب والد أم المؤمنين صفية رضى الله عنها !! وكانوا بين الستمائة إلى السبعمائة !!

وبهذا تطهرت المدينة من الوجود اليهودى المتآمر !!

* * *

وقفة :

● هذه هي غزوة الأحزاب وبني قريظة بأسلوب البشر ... !

والآن : ننتقل لنرى الغزوة في أسلوب القرآن الكريم ... !

وشتان .. شتان بين حديث الله .. وحديث البشر !!

● تصوير الآيات الرعب الهائل الذى نزل بالمسلمين ؛ حينما أحيط عليهم

أعداؤهم من كل سبيل : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وقد بدا الهلع على الوجوه . واستقر في القلوب : (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ! !

● وتتحدث الآيات عن الخوف الشديد الذي عاناه المسلمون ، فتقول : (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) ! !

وقد بلغ من خوف المسلمين وزلزالهم : أن طليعتين للمسلمين التقتا ليلا ، ولا يشعر بعضهم ببعض ، ولا يظنون إلا أنهم العدو ، فكانت بينهم جراحة وقتل ، ثم نادوا بشعار الإسلام : (حم ... لا ينصرون) فكف بعضهم عن بعض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما علم بما جرى : « جراحكم في سبيل الله ، ومن قتل منكم فإنه شهيد » ! !

● ورغم هذا « الزلزال النفسي الهائل » .. وقف المسلمون صامدين صابرين (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) .

أما المنافقون : فقد طارت قلوبهم شعاعاً ، وراحوا يدبرون حيل الفرار ، ويتهمون الله ورسوله : (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) !!

● ولم يكتف المنافقون بما هم فيه من جبن وخور ونكوص : بل حاولوا « استقطاب » من حولهم من الناس : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) !!

● إن في المنافقين طبيعة « النعام » .. فالنعامة لا تسابق في الفرار ! ! و « النعامة » تخفي رأسها في التراب ، وتظن أنها بذلك قد أخفت جسمها البائن ! ! ثم إن للنعامة قلباً جباناً خائراً !!

وهكذا المنافقون : (إن يريدون إلا فراراً) !! .

ثم هم يخفون هذه الحقيقة ـ كما تخفى النعامة رأسها ـ ببعض التعلات الواهية !! . (إن بيوتنا عورة !!) .

ثم يعيشون ويفكرون ويعملون بقلب « نعامة » !!

● وتفضح الآيات الواقع النفسي الذي يعيشه المنافقون ـ فهم :

● (إن دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيراً) !!

(فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت) .

(فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) .

(أشحة عليكم) (أشحة على الخير) :

● وحينما رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، ويكف أيديهم عن المؤمنين : ويكفيهم أمر القتال : فإن المنافقين لا يصدقون ما جرى ، وإن أشباح العدو تلاحقهم فى كل مكان :

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) .

إن مجرد ذكر « الأحزاب » يدك وجودهم دكاً ، ويمزق كيانهم تمزيقاً !!

إنهم يتمنون أن يتوحشوا فى أعماق البادية : يتحملون جوعها وضياعها ، ولا يقابلون هؤلاء الأحزاب ، ولا يقاتلون فى سبيل الله .

(وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) .

إن المنافقين ـ كما تصورهم الآيات ـ مثبطون معوقون ، لا يصلحون لجهاد ، ولا لأى تضحية : (ولو كانوا فيكم ، ما قاتلوا إلا قليلا) !!

* * *

ثم تقول الآيات : (وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً)

وإنما ردهم الله من أجل عباده المؤمنين ، وجنده المخلصين : لا من أجل المنافقين والمرجفين ومرضى القلوب ! !

● أما الخائنون الغادرون من اليهود : فلم تعصمهم بروجهم المشيدة ، من بأس الله : إذ قذف سبحانه في قلوبهم الرعب الجبان ، فغشى أبصارهم ، وانسرب في قلوبهم : يخنق فيها كل إحساس بالأمل والشجاعة والحياة : فاستسلموا بدون مقاومة ، ثم ألقوا برءوسهم الكاذبة الخاطئة المتآمرة الغادرة في حفرة من حفر الأرض ... ثم في حفرة من حفر النار ...

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً) !!

* * *

وصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده

من سورة الفتح

ميزان القوى :

(الآيات : ١ – ١٧) إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً . هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ، ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما .

سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ، ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما .

سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ، فسيقولون : بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا .

قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون : فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ، ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليما) .

* * *

● نحن الآن بعد غزوة الأحزاب بعام واحد ! ! وهذه آيات الله تحمل المسلمين بشائر الفتح !! .

ولقد كان يوم الأحزاب — كما أسلفت — يوم زلزال شديد ، أصاب قلوب المؤمنين برجفة ، أو كما قال الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

فما أعظم الفرق بين عام ، وعام !!

ما أعظم الفرق بين ما جرى فى العام الخامس للهجرة ، وما يجرى فى العام السادس للهجرة ... !

إن الذى جرى فى العام الخامس للهجرة : هو « حصار » المدينة بعشرة آلاف مقاتل مشرك !!

إلا أننا نعرف الآن في العام السادس للهجرة : عمرة « حصار » لمكة بألف وأربعمائة مجاهد مسلم !!

فى عام واحد ...

تحول المسلمون من « محاصَرين » إلى « فاتحين » ! !

وتحولت قلوبهم من « الزلزال » — وهم فى بيوتهم — !! إلى « السكينة » وهم على مشارف بيوت عدوهم — : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) !!

كيف كان هذا ؟

وكيف يمكن أن يكون ؟

إن المقاييس البشرية المادية كلها !! — التى لا تحسب لسنة الله حساباً — : عجزت عن استيعاب هذا الذى كان !! ولا تكاد تصدقه !! لأن المقاييس البشرية المادية : مرتبطة بمواصفات خاصة تتناسى فيها « قدرة الله » و « سنته » .. وكيف أن « النصر من عنده » وأن « ميزان القوى » بيده ! !

* * *

لقد قدر « المنافقون » — ميزان القوى — بأسلوب بشرى مادى بحت ، فوجدوا أن قوة صغيرة ، تقتحم على قوة كبيرة بلادها وديارها !! لا يمكن أن تعود أبداً ... ولو عادت فلن تكون سالمة ولا غانمة !!

ولهذا أصروا على عدم المشاطرة فى هذه المخاطرة .. إيثاراً للسلامة وإبقاء على حياتهم ، وحرصاً على نجاتهم . ويكشف الله نواياهم بقوله : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ...) !!

● ويقول الأسلوب البشري المادي ... !!

إن القوة « المهاجمة » لابد أن تكون أقوى من القوة « المدافعة » مرتين على الأقل ! ! !

فإن بال النظرية هنا معكوسة تماماً .. إن القوة « المهاجمة » لا تعادل عشر معشار .. القوة « المدافعة » ! !

إنها « المعجزة » .. إنها « المعجزة » .

* * *

إن الحساب البشري المادي[1] .. عند الله — لا يعدو أن يكون « ظناً » وأحياناً « ظناً سيئاً » (وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) !!

والحساب البشري المادي .. قد ينهزم أمام رؤيا يراها نبي .. (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) !

وهكذا تحولت الرؤيا — بقدرة قادر — إلى فتح .. وفتح قريب مبين ، ونصر عزيز : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

● ونحن مع هذا « الفتح » على ميعاد ..

نروى « قصته » كما رواها الثقاة من رواة « سيرة » الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نتعرف على « مراكز المنافقين » من خلال هذه القصة ..

* * *

---

(١) أي الحساب البشري المادي [illegible] ولا نذهب إليه [illegible] — إن صح هذا التعبير — إلى جانب الحساب المادي !!!

الحديبية :

• كانت في ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

• وسببها : أنه — صلى الله عليه وسلم — أُرِىَ فى المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم ، وقصر بعضهم : فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك .

فأخبر — صلى الله عليه وسلم — أصحابه أنه معتمر ، فتجهزوا للسفر ، واستنفر العرب ، ومن حوله من البوادى ليخرجوا معه ، وهو لا يريد الحرب ، ولكنه يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، فأبطأ كثير من الأعراب المنافقين ، الذين قال الله تعالى فيهم : (٤٨ : ١١ — ١٦ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً . . الآيات) .

• وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين غرة ذى القعدة من السنة السادسة ومعه زوجته أم سلمة فى ألف وأربعمائة ! ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر : السيوف فى القرب . فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى ، وأشعره ، وأحرم منها بعمرة .

• وسار النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل . فألحت فقالوا : خلأت

القصواء(١). فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية .

● وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مُبلغ ما أردت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان : فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالا مؤمنين بمكة ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها الإيمان .

● فانطلق عثمان ، فمرَّ على قريش ببلدح — موضع قرب مكة — فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة .

● وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! !

● وبلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن عثمان قد قتل فدعا إلى

(١) خلأت — كما تقول للدابة : حرنت — ولا يقال : خلأت إلا للناقة .

بيعة الرضوان. فسارع المسلمون إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على نفسه، وقال: هذه عن عثمان.

● ولقد حدثت حادثتان من حوادث النفاق، ينبغي أن نتعلمها: الحادثة الأولى: حدثت وقت وجود النبي — صلى الله عليه وسلم — بالحديبية، وقبل الصلح أرسلت قريش إلى عبد الله بن أبي: «إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل» فقال له ابنه عبد الله: «يا أبت أذكرك الله ألا تفضحنا في كل موطن: تطوف، ولم يطف رسول الله! فأبى حينئذ، وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله»(1).

ومعنى هذه الحادثة: ● أن قريشاً لم ترسل إلى عبد الله بن أبي بالذات إلا لعلمها أنه يسير على منوالها في عداء محمد ودعوته. ● وإنما رفض عبد الله هذه الدعوة: لأنها تعطي فضوحاً لا وزن له، وستترتب عليه أضرار شتى!!

الحادثة الثانية: قال سلمة بن الأكوع: بينما نحن جلوس قائلون(2)، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب: «البيعة.. البيعة» فسرنا إلى رسول الله وهو تحت الشجرة، فبايعناه، وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح، وإما الشهادة، لم يتخلف منا أحد إلا الجد بن قيس(3)، قال: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، يستتر بها من الناس!!

* * *

(١) ص ١٢٤ النفاق والمنافقون للأستاذ إبراهيم علي سالم.

(٢) من القيلولة وهو وقت الظهيرة.

(٣) الجد بن قيس أحد المنافقين، وقد تقدم ذكر بعض مواقفه في سورة [illegible]، وهو الذي قال الله في شأنه: (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني).

● ولما تمت بيعة الرضوان رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت!! فقال: بئس ما ظننتم بي!! والذي نفسي بيده لو مكثت بها سنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم!! ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت!! فقال المسلمون: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً!

● بينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي ـ في نفر من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح[1] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل[2]، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، فإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره!»

قال بديل: سأبلغهم ما تقول:

● ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: قد سهل لكم من أمركم. فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا الكاتب فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل:

---

(١) عيبة نصحه وموضع نصحه، كأنها القلوب والصدور التي تسمى العيبة، تشبيهاً لها بالعياب التي يستودع فيها الثياب.

(٢) العوذ: [illegible]، والمطافيل: ذوات الأطفال، وعلى هذا ينبغي أن يكون النص: العوذ والمطافيل.

أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ؟ ولكن : اكتب باسمك اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك . ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني رسول الله ، وإن كذبتموني ، اكتب : محمد بن عبد الله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب .

● فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله ! ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ ! ! !

● واصطلحوا :

— على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض .

وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم . ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .

— وأنه بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال .

— وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد من العرب وفي عهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . (فتواثبت خزاعة . فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم) .

-- وأن يرجع محمد من عامه هذا فلا يدخل مكة ، وإذا كان عام قابل ، خرجت قريش عن مكة ، فدخلها بأصحابه . فأقاموا بها ثلاثاً ، معهم سلاح الراكب السيوف في القرب .

● وبينما هم كذلك : إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : إذاً والله لا أصالحك على شيء أبداً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأجزه لي ، قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى فافعل . قال : ما أنا بفاعل ، قال مكرز : بل قد أجزناه لك . قال أبو جندل : يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلماً ؛ ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله . فقام سهيل إلى شجرة فأخذ منها غصناً وضرب به وجه أبي جندل ضرباً رق عليه المسلمون وبكوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً ! ! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهداً وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم ! !

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني قائم السيف منه . يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ولكن الرجل ضن بأبيه . وقد روي عن أبي جندل أن الذي منعه حرصه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا الضن بأبيه ! !

● وعند البخاري : قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبي الله فقلت : ألست نبي الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني

رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى ! !

● فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه : قوموا فانحروا ، ثم احلقوا .. فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ! ! فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس فقالت له أم سلمة : يا نبى الله ! اخرج .. ثم لا تكلم أحداً حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك ، فلما رأوا ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما ! !

عمرة القضاء :

وفى ذى القعدة من سنة سبع خرج صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية .. ! ولما دخل المسلمون مكة خرجت رءوس الكفر منها ، لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه رضى الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فقد جلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فدخل عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمامها ، وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه   باسم الذى محمد رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله   ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله   قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله   بأن خير القتل فى سبيله
يارب ! ! إنى مؤمن بقيله

نصـــح :

● ذلك هو الفتح الذى نزلت فى شأنه « سورة الفتح » كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره . أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ؛ ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة . وقد كان فتح مكة فتحاً . ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن مجمع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها : إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فخرجنا مع الناس نوجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) .

قال : فقال رجل (١) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إى والذى نفسى بيده إنه لفتح » رواه أبو داود فى الجهاد .

ويبين الزهرى معنى كون صلح الحديبية فتحاً — فيقول :

لما كانت هدنة الحديبية ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين [بين صلح الحديبية وفتح مكة] مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر !

● قال ابن هشام ، والدليل على قول الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى زاد المعاد أن القائل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وسلم ، خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة — فى قول جابر بن عبد الله — ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف !

* * *

● هذه رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم تتحقق !

● . . كان « عقد الهدنة » هو تمهيد الفتح ومحوره . . . ولكن كثيرا من المسلمين . دققوا النظر فى بنود هذا العقد ، أو فيه بارقة أمل ، وقد أصابهم بالحيرة والذهول والدهشة . . لولا إيمانهم الكبير الذى يحفظ عليهم الثقة فى الله ، وفى رسوله ! !

وقد راحوا يتساءلون : علام نرضى الدنية فى ديننا ؟ !!

● أما المنافقون فقد راحوا يهزءون بكل شىء . . بالرؤيا . . وبالبيعة . . وبعقد الهدنة . . وبجنود المسلمين ، وهم يسيرون فى استسلام إلى مراكبهم المحطمة على أبواب مكة ! !

. . . كان يخطر ببال منافق أن المسلمين سيسيرون بخطى ثابتة قوية نحو النصر المؤزر ، والفتح المبين !!

وما كان يخطر بباله أن الكفر ستزلزل فرائصه ، وستنهار عزيمته ، وسيرغم على توقيع معاهدة صلح . . وهو الذى دق أبواب المدينة بجحافله مرتين . . مرة يوم أحد ، ومرة يوم الأحزاب ! !

● . . كان المنافقون يحسبون أن المسلمين بعد أقل من شهرين سيغزون خيبر . . حيث الغنائم الكثيرة ، التى حرم منها المنافقون والمخلفون ، وحظى بها الذين شهدوا الحديبية وحدهم ! !

وما كان المنافقون يحسبون : أنه بعد عام واحد ، من صلح الحديبية سيدخل المسلمون المسجد الحرام ، محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ! !

وما كانوا يحسبون . . أنه بعد عامين اثنين ! ! سيدخلون مكة فاتحين منتصرين ! !

ولكن ماذا يفعل المنافقون ، وهم يحسبون « المعارك » و« الانتصارات » بالحساب البشرى المادى . . فقط ! ! ؟

* * *

لقد عاد الرسول والمسلمون معه سالمين غانمين فاتحين . .

والتقى بهم المنافقون : وفى رءوسهم مكر الثعالب ، وفى قلوبهم غدر الثعابين ، وفى نظراتهم خبث الشياطين وفى عيونهم دموع التماسيح .

جاءوهم . . ليبدلوا معهم جولة من جولات النفاق : ولكن « سورة الفتح » كانت قد نزلت . . ففضحتهم قبل أن ينطقوا بكلمة واحدة ! !

لقد وصفتهم سورة الفتح بأنهم :

• يظنون بالله ظن السوء .

• يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم .

• كانوا قوماً بوراً .

• يريدون أن يبدلوا كلام الله .

• سيقولون — للمؤمنين — بل تحسدوننا .

وقالت عنهم إنهم سيدافعون عن أنفسهم بقولهم : (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وسيطلبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم .

وقد أصدرت السورة حكمها عليهم ، بما يلى :

• عليهم دائرة السوء .

• وغضب الله عليهم .

• ولعنهم

• وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً .

• وأعد لهم سعيراً .

* * *

وهكذا ضاعت تقديرات المنافقين ، وضاعوا !

وبقيت كلمة الله ، وسننه ! !

في سورة الحشر

مثل الشيطان :

(الآيات ١١ – ١٣ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون).

* * *

• روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بني النضير ! !

غزوة بني النضير :

• بنو النضير : إحدى قبائل اليهود الثلاثة بالمدينة — بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة — وقد ظلوا بعد إجلاء يهود بني قينقاع يعيشون في ظلال العهد الذي عقدوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم !

• ولكن طبيعتهم الغادرة أبت إلا أن تدفعهم دفعاً إلى محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ! !

• فلقد ذهب إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم في نفر قليل من الصحابة — دون العشرة — منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ليستعين بهم في دية رجلين من بني عامر حلفاء بني النضير فتلقاهم أحد الصحابة خفياً ؛ فما عرض ذلك الأمر

عليهم . قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، اجلس ، ونقوم فنتشاور ، ونصلح أمرنا فيما جئتنا به .

● فلما خلا بعضهم إلى بعض فطنوا لما كانوا في غفلة عنه ، ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جوار جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال منفرداً ، فمن رجل يعلو هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ » فقال أحد سراتهم : – وهو عمرو بن جحاش – « أنا لذلك » ! !

● فاعترضهم سلام بن مشكم – وكان من أحبارهم – وقال : « لا تفعلوا !! لئن فعلتم ، فوالله ليخبرن بما هممتم به ، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه ، يا قوم أطيعوني هذه المرة ، وخالفوني الدهر !! » .

● ولكنهم لم يسمعوا له ، وصعد عمرو بن جحاش ليلقي الصخرة ...

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام ، مظهراً أنه يريد أن يقضي حاجته حتى لا يفطنوا له ، وحتى لا يؤذوا أصحابه ، ورجع مسرعاً إلى المدينة ، ثم عاد إليه أصحابه ، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر !!

● وأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه : « أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني فيها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر » ! ! ، وأخبرهم بما هموا به ، فسكتوا ، ولم يقولوا شيئاً ، فقال : « ويقول لكم ! قد أجلتكم عشراً فمن رؤي منكم بعد ذلك ضربت عنقه » !

● فرأوا أمام هذا الأمر أن يخضعوا ، ومكثوا أياماً يتجهزون ، واكتروا من قبيلة بني أشجع إبلاً للرحيل عليها .

○ ولكن المنافقين أرسلوا إليهم : «أن اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من دياركم ؛ فإنا لن نسلمكم : إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم !»

○ وأرسل إليهم عبد الله بن أبي : «ألا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا في حصونكم ؛ فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم ما تكرهون ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان» .

○ وكان على حيي بن أخطب زعيم بني النضير أن يستوثق من وعود ابن أبي قبل أن يعلن العصيان ؛ ولكنه أعلن قومه بعزمه على العصيان ، فاعترضه سلام بن مشكم ، وقال له : «منتك نفسك والله يا حيي الباطل» . ولكن حييا أجابه : «ما لي إلا عداوة محمد وإلا قتاله» فقال له سلام : «فهو والله جلاؤنا من أرضنا ، وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبي ذرارينا ، مع قتل مقاتلينا» .

○ ولكن حييا أبى إلا أن يسير في طريقه حتى منتهاه !! ، وتبعه على ذلك بنو النضير قائلين له : «أمرنا لأمرك تبع ، لن نخالفك» !! . فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنا لن نخرج من ديارنا فافعل ما بدا لك» !!

* * *

○ فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : «حاربت يهود» !!

وكبر المسلمون ، وتهيئوا للحرب !

وذهب النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى حصونهم ، فحاصرهم ، وهم بنو النضير !

• وخلال الحصار الذي استمر ست ليال[1] : انتظرت بنو النضير طويلاً نجدة « ابن أبي » ، ولكن دون جدوى .. ! كل ما كانت تلقاه منه وصايا .. تلو وصايا تقول : « اثبتوا ، وتمنعوا » ..

• وسأل سلام بن مشكم « حيي بن أخطب » : « أين نصر ابن أبي الذي زعمت ؟ » فلا يزيد على أن يقول : « ما أصنع ، هي ملحمة كتبت علينا .. » .

• وأخيراً .. سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[2] ، ففعل .

• فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[3] بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

* * *

• يقول ابن هشام[4] : « ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عمل به فيهم » .

• ومما قالته سورة الحشر فيهم :

---

(١) كان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة .
(٢) الحلقة ـ السلاح كله ، أو الدروع خاصة .
(٣) النجاف ـ بوزن : كتاب ـ العتبة التي بأعلى الباب ، والأسكفة : هي التي بأسفله .
(٤) القسم الثاني من السيرة النبوية لابن هشام ص ١٩٢ .

(هو الذي أخرج الذين كفروا) أي هو : لا أنتم .. وما كان يخطر ببالكم أن يخرجوا .. وما كان يخطر ببالهم — هم — أن يخرجوا (ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) .

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) من داخل قلوبهم . لا من داخل حصونهم . حيثما تتهاوى القلوب : تتهاوى على إثرها الحصون !! وكل شىء ، بعد أن يستسلم القلب ..

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب) .

وإذا بهم ينطلقون في ذعر مدمر . يحطمون كل شىء . ويدمرون أى شىء . ويخربون ما يصادفون . حتى دورهم التي ألفوها . وبيوتهم التي سكنوها ..

(يخربون بيوتهم بأيديهم) .

(وأيدى المؤمنين) .

وهنا تكمن العظة البالغة ، والعبرة المؤثرة :

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) !!

* * *

• والمنافقون .. أين المنافقون !! ؟

لقد أسدلوا على مؤامرتهم الدنيئة ستارا من الصمت .. والجبن .. والخوف ..

لقد كانوا منذ قريب يطلقون الوعود جزافا — لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب — ويقولون : (لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم) !!

(والله يشهد إنهم لكاذبون) وأشهد الدنيا كلها على كذبهم وصفاقتهم !!

(لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون) !!

لقد اكتفى المنافقون بالتحريض ، وبذل الوعود !!

حتى إذا انزلق اليهود إلى هوة الضياع والخيبة ، وقفوا هم على حافتها يرددون عبارات الرثاء والاستهزاء ..

تماماً :

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين) .

* * *

فى سورة المنافقون

الخُشُب المُسَنَّدَة :

(الآيات ١ ـ ٨ إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون : ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون . وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولـكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولـكن المنافقين لا يعلمون) .

* * *

• وقبل أن نلتقى بهذه الآيات ؛ نلتقى بسبب نزولها :

فقد ذكر غير واحد من رواة أسباب النزول أن هذه السورة نزلت فى عبد الله بن أُبى بن سلول .

قال ابن إسحاق ـ وهو يسوق حديثه عن غزوة بنى المصطلق ـ(١)

---

(١) غزوة بنى المصطلق : كانت سنة ست للهجرة .

فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماء المريسيع – بعد الغزوة – وردت واردة من الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يامعشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يامعشر المهاجرين.

● فغضب عبد الله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه: فيهم زيد بن أرقم – غلام حدث –!! فقال: «أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل». ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: «هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم».

فسمع ذلك زيد بن أرقم: فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه –: فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه! ولكن أذّن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها؛ فارتحل الناس».

● وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه – فحلف بالله، ما قلت ما قال ولا تكلمت به – وكان في قومه شريفا عظيما – فقال من حضر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الأنصار من أصحابه: يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل!! حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه –.

● قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار ؛ لقيه أُسَيْد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يانبي الله ! والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبي » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرج الأعز منها الأذل ! » قال : فأنت يارسول الله ، والله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ؛ فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا !

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبي .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال : « هذا الذي وفى الله بأذنه » .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبي الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله : إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله ابن أبي فيما بلغك عنه ؛ فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ،

والله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر غيري بقتله . فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » !!

● وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه . فجعل الناس يمرون عليه . فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي ، قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ؟ ويلك !! فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم — فإنه العزيز وأنت الذليل !! فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان إنما يسير ساقة(١) فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لن يدخلها حتى تأذن له !! فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجز الآن .

* * *

وإذا رجعنا نتأمل وجه هذا الحدث فإننا نجد ما يلي :

● عبد الله بن أبي بن سلول .. رجل حاقد غاش ، يعيش بين المسلمين ، وفي قلبه إحن وفتن ، وشك ونفاق ، وتربص وتحفز . ويسمع [illegible] عديدة آيات الله مبشرة ومنذرة . فإذا به لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب .. لماذا ؟ لأنه فقد مجده الدنيوي ، وضاع منه « التاج » الذي تمناه واشتهاه !!

وهكذا .. يرفض الآخرة !! من أجل الدنيا !! فكانت عاقبته كما قال

(١) في مؤخرة الجيش ينظر إلى المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة .

الله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .

• وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول .. نموذج باهر ، للمسلم الحق .. الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم . فهو يضيق بأبيه وبنفاقه .. ويخجله ما يأتيه أبوه من حقد وكيد ونفاق ... ولكنه أبوه على كل حال ... فحينما يسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقتل أباه : يأتيه صلى الله عليه وسلم .. ويفضى إليه بذات نفسه ، وبمكنون ضميره ، وبالصراع : الهادر الدائر بين جنبيه .. إنه يخشى أن يقتل أبوه بيد غير يده .. فيتورط فى قتل مسلم بكافر — هكذا قال — وهو لهذا يطالب رسول الله ، أن يكل إليه أشق عمل وأقساه ، وهو أن يقتل أباه ..

• ترى .. بماذا قابله الرسول صلى الله عليه وسلم .. الرءوف الرحيم .. ذو الخلق العظيم .: لقد حيا هذه الفدائية الباسلة الفياضة بأنبل المشاعر ، وأجمل المآثر ، وقال : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » .

• ويمضى .. بنا الحدث .. ويمضى ...

فإذا بنا أمام موقف بطولى آخر ...

والبطل هو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول .. مرة أخرى ..

إنه يقف شاهراً سيفه فى وجه أبيه .. الذى يبره .. ويقول عنه : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى » .: ثم لا يتركه يدخل المدينة حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

لقد قال أبوه كلمة جاهلية — قال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

ألا يعلم أبوه أن : (لله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ؟

إن لم يكن علم .. ولا فقه .. فليلقنه عمليا .. أنه الذليل .. ورسول الله العزيز !!!

● ومن مواقف هذا الحدث ...

هذا التصرف الحكيم الذي قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليواجه الفتنة اليقظى !!

فلقد أمر جيشه بالسير الحثيث في غير أوان .. وبغير توان .. حتى يشغله الإعياء عن التفكير في الفتنة الثائرة .

* * *

● ونعود إلى الآيات .. نتأملها .. فتعطينا النعوت والملامح لوجوه وقلوب المنافقين :

— فهم يتخذون الأيمان جنة ووقاية يختفون وراءها حقيقتهم المزيفة .

(إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة) .

— ولهم ظواهر معجبة . وبواطن خربة : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا : تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) خشب مسندة لا قيمة لها . ولا غناء فيها ، فالآية تسمهم بالتفاهة والجبن والخواء . طيب المظهر مع خبث الجوهر !!

— وبينما هم خشب مسندة لا نفع فيها ولا جدوى . إذا بهم يعيشون في توجس دائم . ورعب مدمر . وقلق مستمر : (يحسبون كل صيحة عليهم) .

— وهم طابور « خامس » يجيدون الضرب من الخلف ، وتفريق الصف ،

، الاصطياد في الماء العكر ، إنهم أشد فتكاً من العدو الواضح الصريح : (هم العدو فاحذرهم) .

— مستكبرون بالباطل ، يثيرون الشائعات والقلاقل ، ألسنة بذيئة ، وطبائع دنيئة (وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) .

— يعلنون الحصار الاقتصادي ضد أصحاب المبادئ ، ويتواصون فيما بينهم بخطة التجويع ، ظناً منهم أن الحق تهزمه لقمة خبز (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) .

— لغتهم الهمس والنجوى ، وطبيعتهم الهمز واللمز ، ودعواهم دائماً كاذبة : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

* * *

لقد قالت الأحداث شيئاً .. !!

وقالت الآيات أشياء .. !!

ولا يزال ما قالته الأحداث والآيات يرن في سمع الزمن !

الخاتمة

• ذلك هو المنافق ....

ذلك هو ....

عقله عقل طائر ، وأبيه لب حائر ، وحكمه حكم جائر ، ودينه دين فاجر ..!

لا يروم مرآماً إلا أبعد عنه ، ولا يستفتح باباً إلا أُغلق دونه !!

عثرته موصولة بعثرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة !!

إن سمع زيف ، وإن قال حرّف ، وإن قضى خرّف ، وإن احتج زخرف ، وإن وعد سوّف ، وإن عاهد أخلف ، وإن قيل له : « اتق الله » أفّف !!

دينه مكر ، وشرعته غدْر ، وعقيدته كفر ، وكلامه فجر ، وأسلوبه « الطعن من الظهر » !!

خلقه فسوق ، وطبعه عقوق ، وعبادته مروق !!

• والمنافق : لا يفكر بصوت مسموع ، ولا يحيا بصدر مفتوح ، ولا يأتي الله بقلب سليم ، ولا يعمل بنية طيبة ، ولا يهدف إلى غاية حميدة !!

لغته نجوى ، وحياته شكوى !!

وجنّته يمين فاجرة ، ودنياه بائرة ، وآخرته خاسرة ، ونفسه نذرة كافرة!

• والمنافق يأوى إلى الظلام بعيْنَيْ « خفاش » !!

ويهوى الخراب بطبيعة « بومة » !!

ويألف الرجس بحاسة « جرثومة » .

* * *

ذلك هو المنافق .. ذلك هو ..

• فيارب ... أعذنا من ريبة المنافق ، وصلف المعاند ، وطيش العجول ، وغفلة الكسول ، وسكرة الذهول ... !

• ويارب ... هبنا علماً بريئاً من الجهل ، وعملا خالياً من الرياء ، وقولا مؤيَّداً بالصواب ... !!

• ويارب ... أسألك ؛ فطنة عقل ، وسلامة صدر ، وراحة نفس ، واطمئنان بال ، وثبات يقين ، وقوة دين ، وظهور حجة ، ووضوح محجة !!

• ويارب ... ارزقنا لساناً سمحاً بالصدق ، وصدراً مليئاً من الحق ، وأملا منقطعاً عن الخلق ! !

• ويارب ... أسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال على ما أمرت ، والإدبار عما نهيت ! !

• ويارب .. أشكو إليك قسوة قلبي ، وفتنة نفسي ، وطموح بصري ، وسوء عملي ، وتنمُّق ظاهري ، وتمزق باطني ! !

• ويارب ... إني أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك !!

* * *

وصلى الله وسلم وبارك ؛ على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ؟

دكتور

محمد جميل غازي

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٢٣ سنة ١٩٧٢